شبابنا آمالنا

الصداقة والشباب

أ.د. أحمد على المجدوب

المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

شبابنا آمالنا

الدار المصرية اللبنانية

الدار المصرية اللبنانية

16 ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : 3923525ـ 3936743
فاكس : 3909618 ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : 2022 ـ القاهرة
رقم الإيداع : 9741/ 2001
الترقيم الدولي :3 - 673 - 270 - 977

الطبعة الأولى . جماد أول 1422 هـ ـ أغسطس 2001 م .
جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر
تليفون : 3256098 - 3251043

المدير العام : **محمد رشاد**

مستشار الدار : **أ.د حسن عبد الشافي**

المشرف الفني : **محمد حجي**

هيئة التحرير:

المشرف العام : **أ.د سيد صبحي**

مستشار التحرير : **أ. د. أحمد المجدوب**

مستشار التحرير : **الشيخ منصور الرفاعي**

الغـلاف : محمد حجى
الرسوم الداخلية للفنان البلجيكى : فرانز مازريل (١٨٨٩ ـ ١٩٧٢) . ٠

لماذا هذه السلسلة؟

شبابنا آمالنا . .

صيحة تنطلق من احترامنا لهذه الفترة العمرية من حياة الإنسان ، ولعل هذا الاحترام ينال مع المراحل النهائية السابقة كل الاعتبار ؛ لأن مرحلة الشباب من المراحل العمرية التى تتميز بالقابلية للنمو فى النواحى الجسمية والاجتماعية والنفسية والعقلية والتعليمية ، إلى جانب القدرة على الابتكار والمشاركة الفعالة فى إحداث التغيير والتطوير فى المجتمع الذى يعيشون بين جوانبه ، لأن الشباب هم عماد الأمة ، وأساسها الراسخ الذى يقوم عليه بنيانها . . فإن صلحوا صلح البناء كله ، وإن فسدوا أو اهتزت قيمهم ضعف البناء ، حتى لقد قيل فى أحد الأقوال المأثورة : « أمة بلا شباب أقوياء هى أمة بلا مستقبل . . محكوم عليها بالفناء ! » .

ولما كانت قضايا الشباب من أهم القضايا التى تهتم بها المجتمعات الساعية إلى التقدم ؛ فقد اهتمت « الدار المصرية اللبنانية » بإصدار سلسلة عن الشباب ليقرأها الشباب العربى بنفسه ، فيستطلع فيها أمور يومه وغده، ويقف على مشاكل حياته وقفة جد تنير له الطريق ، تعرفه بما يجب عليه فعله ، وذلك من خلال هذه السلسلة « شبابنا آمالنا » .

وقد حرص محررو هذه السلسلة على أن تخاطب الشباب مباشرة وليس الآباء أو الأمهات أو المعلمين ، فضمنوها موضوعات تهم الشباب العربى من المحيط إلى الخليج ، حيث إن الاهتمامات بين البيئة العربية واحدة تقريبا ، وإن تباينت من بلد إلى آخر ! كما حرص محررو السلسلة على أن

تناقش بعض القضايا التى تقترب معهم وبهم من الكمال النهائى ، إيمانا منهم بأن هذه المرحلة قد يظهر خلالها بعض الاضطرابات السلوكية ، وبعض جوانب التفاعلات الاجتماعية التى يظهر فيها القبول تارة ، والرفض تارة أخرى . . إلى جانب أنها فترة يظهر فيها ـ كذلك ـ جوانب الانتماء ، والمسئولية ، والعطاء ، إذا أعدت الإعداد السليم . . أو قد نرى فيها بعض الملامح السلوكية التى تجمح ببعض الشباب إلى طريق الاندفاع والثورة والرفض والتبرم والاعتراض ! لذا . . كانت المحاور الرئيسية التى تقوم عليها هذه السلسلة هى: الاهتمام بالجانب الثقافى المعرفى ، والجانب الأخلاقى الدينى ، والجانب النفسى الاجتماعى ، والجانب الرياضى الترويحى ، بالإضافة إلى الجانب الإعلامى الإرشادى ، وأخيراً الجانب التأهيلى المهنى . . وذلك من خلال دراسات وآراء كبار الأساتذة والمفكرين التى تقوّم قضايا ومشكلات الشباب من منظور أخلاقى ؛ حمايةً ووقايةً للشباب .

وإننا نقدم هذه السلسلة إيمانا منا بأن الشاب العربى الذى ينتسب إلى طائفة العاملين الجادين ؛ ينتسب بدوره إلى فئة الأبرار . . تلك التى تحرسها الملائكة لأنهم يعملون من أجل رفعة أوطانهم ، فتحفهم بدعوات صادقة ، وتحذرهم فى نفس الوقت حين يتهددهم خطر الضلال الذى قد يضطرهم إلى القيام بكثير من الأعمال التى تنحرف بهم عن جادة الطريق .

. . والله الهادى إلى سواء السبيل . . ،

تقديم

الصداقة قيمة وأمل وإنجاز ، فهى من حيث كونها قيمة لأنها تجعلنا نتخلص من سلوك الأنانية البغيض من خلال الوفاء والإخلاص المتبادل ، ومن حيث هى أمل لأنها تكوّن من خلال المودة والتفاعل المثمر ذلك السياج الواقى الذى يحمى الأوفياء من الأصدقاء من الوقوع فى براثن الخطأ . . ثم هى إنجاز لأنها تدفع إلى التقدم والارتقاء من خلال التطلع الخصب الذى ينسجه كل صديق على منوال الوفاء والمحبة .

إن الصداقة تمثل لغة الوجدان الراقى الذى يغذى العلاقات الإنسانية برحيق الصفاء بعيدا عن التقوقع أو الاستحواذ ، فالصداقة عطاء وذوق وتضحية وإخلاص وفروسية .

إن الصداقة المخلصة غرس نبيل سوف يجعل كل صديق يرى غرسه الطيب فى كل مواسم الحصاد الواعية فيلمسه فى عيون الصديق الصادقة والأمينة والوفية . . تلك التى تعرف معنى العطاء وتقدر معنى السخاء ، ولسوف تكون البداية دائما مع الصديق ومع العطاء . . وهى بداية مشرقة حيث لا يعرف العطاء إلا الأمل والوفاء والصدق والوضوح والتفاعل الأمين والمحبة الخالصة . ومن هنا كان هذا الكتاب الذى يتناول الصداقة والأصدقاء إيمانا منا بأن الشباب الواعى هو الذى يعرف معنى الصداقة ويسعى إليها مخلصا ووفيا .

هيئة التحرير

مقدمة

تفرض طبيعة الحياة الاجتماعية على الفرد أن يدخل فى علاقات مع الآخرين ، وأن يتبادل معهم المشاعر والأحاسيس . ولا يوجد فرد فى هذه الدنيا ليس له علاقة من نوع ما بآخرين . . فهو على الأقل ابن لأبوين أنجباه ، وبالتالى فهو عضو فى أسرة هى بدورها جزء من عائلة . . وهكذا . ومع تقدمه فى السن تزداد علاقاته بالآخرين وتتنوع ، فهو جار وتلميذ فى المدرسة وفى العمل وعضو فى أحد الأندية أو فى نقابة أو فى جمعية ، ثم هو زوج ورب أسرة ، وهو ما يسمى بعلاقة المصاهرة .

وكما لاحظنا ، فإن هذه العلاقات ، كلها أو معظمها ، مفروضة على الشخص وليس لإرادته دخل فى الارتباط بها ، فهو ابن وأخ وحفيد ، وبالتالى قريب لعدد لا يحصى من الأقارب والأصهار لا لشىء إلا لأنه ولد لأبوين معينين ، وهو جار لأنه لا يستطيع أن يقيم وحيدا فى مكان لا يقيم فيه أحد ، ثم هو زميل ، سواء فى المدرسة أو فى العمل أو فى ناد أو فى نقابة أو فى جمعية إلى غير ذلك من التنظيمات الاجتماعية ، لأنه لا بد أن يتعلم وإن لم يفعل فلا بد أن يعمل ، فإذا عمل فقد يتطلب ذلك أن يكون عضوا فى نقابة أو فى جمعية أو فى غير ذلك من التنظيمات التى تهدف إلى حماية أعضائها ورعاية مصالحهم . وأخيرا يتزوج فيصاهر ، ثم ينجب . . وهكذا دواليك . وفى كل هذه الأحوال يتعامل مع آخرين قد يجد فى نفسه رغبة فى أن يتخذ من واحد منهم أو أكثر صديقا أو أصدقاء .

ولكن هل من السهل أن يتخذ الشخص صديقا أو أكثر ، أم أن ذلك قد

يكون أمرا صعبا ؟ وإذا كان الأمر صعبا حقا ، فلما هو كذلك ؟ هل لأننا لا نعرف المعنى الحقيقى للصداقة فنخلط بينها وبين غيرها من العلاقات الاجتماعية ؟ أم هل لأننا لا نعرف أو لا نجيد الطريقة التى نقيم بها صداقة مع الآخرين أو لا نمتلك القدرة أو الموهبة التى تجعلنا ننجح فى إقامة صداقة حقيقية وصحيحة مع الآخرين ؟ أم لأن الزمن الذى نحيا فيه يجعل عقد الصداقات الحقيقية والصحيحة أمرا صعبا ؟ . . أم ماذا ؟!

الحقيقة أن الدخول فى علاقة صداقة ليس بالأمر السهل كما قد يظن البعض ، ذلك أن درجات التقبل الاجتماعى تختلف باختلاف مكونات الشخصية والمواقف الاجتماعية ، فقد يسعى شخص لإقامة علاقة صداقة مع شخص أو أشخاص آخرين ، ولكنه لا يصادف قبولا منه أو منهم وتتكرر محاولاته ، ولكنه يفشل فى كل مرة ، الأمر الذى يترك أثرا سيئا فى نفسه ، لا ينبغى أن يستسلم له دون أن يبادر إلى البحث فى أسبابه ليعرف لماذا فشل، وهل الفشل يرجع إليه أم يرجع إلى الآخر أو الآخرين الذين رغب فى اتخاذهم أصدقاء . . كأن يكون هو نفسه فيه عيب أو عيوب لا يدركها ، ولكن الآخرين يدركونها ويجدون أنها تحول دون قيام صداقة صحيحة معه ، أو أن يكون اختياره خاطئا يفتقر إلى الأساس السليم .

ولقد كان من المتوقع أن يؤدى التقدم فى مضمار الحضارة إلى تقدم مماثل فى الصداقة كعلاقة إنسانية راقية تقوم بوظائف بالغة الأهمية فى حياة الإنسان، ولكن الذى حدث هو العكس تماما حيث أدى الطابع المادى الجاف للحضارة الغربية الحديثة إلى إضعاف كل ما كان فى حياة الإنسان من قيم ومثل عليا ، وأصبحت المادة هى الهدف من وراء كل العلاقات الإنسانية . وزاد الطين بلة أن بقية شعوب العالم نظرت إلى هذه الحضارة فى إعجاب شديد وحاكتها فى مساوئها دون حسناتها . . وهكذا قدر للطابع

المادى الجاف للحضارة الغربية أن ينتقل إلى كل أنحاء العالم ليشوه القيم والمثل العليا ، ومن بينها الصداقة التى أصبحت أقرب إلى السلعة منها إلى العلاقة الإنسانية النبيلة والراقية ، وبالتالى فقدت الدور البالغ الأهمية الذى كانت تلعبه فى حياة الإنسان ، والذى لا يقل عن الدور الذى تلعبه علاقة القرابة ، بل قد يزيد فى كثير من الأحيان ، لأن الصديق يكون أقرب إلى نفس الإنسان وعقله، بل وقلبه من القريب حتى ولو كان أخا . وقديما قالت العرب: القريب قد لا يكون صديقا، ولكن الصديق دائما قريب . . يقصدون قريب إلى قلب وعقل صديقه ، وهو ما نلاحظه الآن نادرا .

إن الصداقة مثلها فى ذلك مثل القيم، تتأثر بالتغيرات التى تحدث فى المجتمع فيصيبها الضعف حينا ، ثم تسترد قوتها حينا آخر . . وهكذا . وهو ما يرصده الناس بسهولة ، فتراهم يتحدثون دائما عما أصاب الصداقة من ضعف ، ويقارنون بين ما آل إليه حالها وما كانت عليه إلى سنوات مضت ، ونجد من ذلك كما هائلا فى أعمال المفكرين والأدباء ، سواء كان شعرا أو نثرا أو رواية .

ونلاحظ أن التحولات الاقتصادية السريعة والتى بدأت بما يسمى الانفتاح الاقتصادى ، وما صاحبها من تغيرات اجتماعية عنيفة وعميقة أدت إلى إضعاف القيم الأصلية التى عاش عليها المجتمع طويلا ، وأحلت محلها قيما ذات طبيعة مادية تعلى من شأن المصالح الخاصة وتقدمها على المصالح العامة وكل ما أفرزته من قيم مساعدة ومستقلة على مدى القرون الماضية .

وهكذا رأينا كيف أن الانفتاح الاقتصادى أدى إلى نمو المصالح الخاصة، ثم غلبتها للمصالح العامة مع التحولات الاقتصادية المستمرة ، وما أدى

إلبه ذلك من ترهل العلاقات وضعف الصلات فيها بين الناس ، ومن ضمنها ـ بل فى مقدمتها ـ الصداقة . كما أن عطاءهم الذى يسهم فى توازن الحياة أخذ يقل باستمرار ، على الرغم من ازدياد ما يستطيعون إعطاءه .

ولأن الشباب لم يعاصروا الأوضاع التى كانت تسود المجتمع قبل التحولات الاقتصادية التى أثرت ، منذ أن بدأت ، فى قيم المجتمع وفى مثله ـ ومن بينها الصداقة ـ فأصابتها بضعف شديد ، وبالتالى لا يمكنهم أن يقارنوا بين ما كان قائما وما هو موجود الآن ، وهى المقارنة التى لا بد منها للتعرف على ما للصداقة الحقيقية والصحيحة من أهمية ، لا فى حياة الأفراد وحسب، بل وفى حياة المجتمع كله . لذلك فإننا سنفرد لهذه الأمور كلها فصولا فى هذا الكتيب الذى نرجو أن يكون ، على الرغم من صغر حجمه مفيدا لكل من يقرأه وبخاصة الشباب .

. . وبالله التوفيق ،

د. أحمد المجدوب

الفصل الأول

تعريف الصداقة

أهمية تعريف الصداقة

قبل أن نعرّف الصداقة ، نبدأ فنبين للقارئ العزيز أهمية التعريفات أو المفاهيم بصفة عامة ، والصداقة بصفة خاصة ، حتى لا يتبادر إلى الأذهان أنها شيئا زائدا لا ضرورة له أو إضافيا يمكن الاستغناء عنه . فالملاحظ أن كثيرا من الفشل الذى يصيب الصداقة بين الناس يرجع ، فى حقيقته ، إلى عدم فهمهم لمعنى الصداقة مما جعلهم يسيئون اختيار أصدقائهم أو يسيئون معاملتهم ، فتكون النتيجة فشل الصداقة . وبطبيعة الحال ، فإن الأمر لا يقف عند هذا ، وإنما يتجاوزه إلى ما هو أخطر وأشد ضررا ، ألا وهو الآثار الاجتماعية والنفسية التى تترتب على تكرار فشل الشخص فى اتخاذ الأصدقاء، وهو ما سنعرض له فى ثنايا هذه الدراسة . لذلك رأينا ـ ونحن بصدد بيان أهمية التعريف أو المفهوم ـ أن نذكر واقعة حقيقية خاصة بمفهوم الصداقة ، لكى نذلل بها على ما قد يترتب على الخلط بين المفاهيم من أضرار اجتماعية ومادية .

قد يتساءل البعض عن أهمية التفرقة بين الصداقة وغيرها من أشكال العلاقات الإنسانية ، وما الفرق بين أن أقول عن شخص ما إنه صديقى ، أو أن أقول إنه زميلى أو صاحبى أو جارى ؟ وإلى هؤلاء أقول : إن لذلك أهمية من جانبين ، الأول ما يجب أن نلتزم به فى كلامنا من دقة ووضوح ، خاصة فى هذا الزمن الذى انتشر فيه التعليم وتقدم العلم ، وأصبح لما يسمى بالمفاهيم أو المصطلحات أهمية عظيمة . فالمتعلم والمثقف يجب أن لا يلقى بالكلام على عواهنه أو أن يردده دون أن يكون لديه وعى بمدلوله ، لأن ذلك إن دل على شىء فإنما يدل على استخفافه بمن يتحدث إليهم ، أو على

الأقل جهله بالحديث وافتقاره إلى القدر المعقول من اللباقة وحسن التصرف الذى يجب أن يتحلى به الإنسان المتحضر .

كذلك فإن اختلاف الكلمات التى تطلق على العلاقات الإنسانية ، مثل : القرابة والصداقة والزمالة . . وغيرها ، ليس السبب فيه الحذلقة أو غيرها ، وإنما يرجع إلى اختلاف المعانى . . فقرابة لها معنى غير صداقة ، وهذه معناها غير زمالة . . وهكذا . وفى هذا يقول أبو هلال العسكرى (الفروق فى اللغة ، ص١٣) : إن اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعانى ، فالاسم كلمة تدل على معنى دلالة الإشارة ، وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة فعرف ، فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيدة . كأن تقول مرة : صديقى ، وتقول مرة ثانية : قريبى ، وتقول مرة ثالثة : صاحبى . . كأنها مترادفات تحمل نفس المعنى ، بينما هى فى الحقيقة ليست كذلك .

وبناء عليه ، فإننا إذا صادفنا فيما نقرأه ، أو نسمعه من البعض ، عبارات ، مثل : الصديق والقريب والصاحب والمعرفة والزميل ، فإما أن يكون لكل عبارة منها معنى ، وإلا لكان يكفى ذكر العبارة الأولى فقط واستبعاد العبارات الباقية لعدم الحاجة إليها ، فضلا عن أن استعمالها مضيعة للوقت وتبديد للجهد ، وهو ما لا يجوز أن نفعله .

ولبيان ما لهذا الأمر من أهمية ، أسوق هذه الواقعة الحقيقية التى حدثت بسبب الخلط بين الصداقة وغيرها ، سواء عن جهل أو بدافع المجاملة التى جاءت فى غير محلها . . فذات يوم التقى زميلين فى العمل ببعضهما البعض وكان مع أحدهما شخص قدمه لزميله بوصفه صديقا له ، وبالفعل أيده هذا الشخص فيما قاله ، وأضاف إليه أنه يكن له حبا وتقديرا وثقة . . وغير ذلك من الكلمات التى اعتاد الناس فى مجتمعاتنا ترديدها دون أن يعنوها . وافترق

الثلاثة ، وبعد عدة أيام جاء الزميل إلى زميله وأخبره وقد بدا عليه السرور ، كيف أن فلانا صديقه التقاه فى النادى أمس وطلب منه وهو فى أشد الحرج أن يقرضه مبلغا من المال ، وأنه استجاب لطلبه وأعطاه مائة جنيه وعد بأن يردها له عن طريق الزميل ، الذى ما إن سمع هذا الكلام حتى ثار وأرغى وأزبد يلوم زميله على تصرفه ويحمله المسئولية كاملة عن ضياع ماله ، لأن هذا الشخص ليس صديقا له ولا حتى زميل ، وإنما هو مجرد معرفة فقال له الضحية : وما أدرانى أنه كذلك وقد قلت عنه أنت بلسانك أنه صديقك ، فما كان من الزميل إلا أن قال له فى بساطة : أنا كنت أجامله !

ويحاول الزميل الذى ضاع ماله أن يجعله يفهم أن هناك فرقا بين أن يقول وهو يقدم الشخص : فلان معرفتى أو تعرفت به أخيرا ، وأن يقول فلان صديقى ، فهو إذا قال : معرفتى أو تعرفت به أخيرا ، إنما يعنى أنها علاقة جديدة سطحية ، وإن رغب فى أن يجامله ، فليقل ـ مثلا ـ وكان من حسن حظى أن تعرفت به ، وقد يضيف : وأرجو أن تستمر هذه المعرفة ، وأن تتحول إلى صداقة إن شاء الله . ولكن الزميل الذى أخطأ عاند وكابر وأخذ ينفى أنه ارتكب خطأ ويتهم زميله بأنه هو الذى أخطأ ، فكان مما رد به عليه قوله له : لقد قدمتنى له بصفتى زميلا لك ، ولم تقل إنى صديق على الرغم من أننا نعمل فى مكان واحد ولا يكاد ينقضى يوم دون أن نلتقى ، فقال المخطئ : هذا صحيح فأنت زميل ولست بصديق . فرمقه بشدة ، وهو يقول له : وهو صديق وليس مجرد معرفة ! فبدت عليه الحيرة . وشاءت الظروف أن حضر بعض الناس فاحتكم إليهم المجنى عليه ، وطلب أن يدلوا برأيهم ، فقالوا بلا تردد : إن زميله مخطئ ، وما كان يجب أن يقول عن الرجل النصاب صديقا ، وإنما يقول معرفتى أو تعرفت به أو غير ذلك بما لا يخرج بالعلاقة عن حدودها ، ويجعل من يقدمه إليهم يضعون ثقتهم فيه ،

على اعتبار أن الذى قدمه لهم بوصفه صديق له معروف بالدقة فى اختيار الأصدقاء ، ولا يمكن أن يعرف من هم على هذه الشاكلة .

كذلك فإن إطلاق الأوصاف أو الأسماء كيفما اتفق وبدون توخى الدقة يؤدى إلى مشكلات أخرى لا تقل أهمية عما تقدم . . فبالنسبة للصداقة يترتب على الخلط بينها وبين غيرها من العلاقات الاجتماعية كالزمالة والصحبة ، أن من وقع فى الخلط . . إذا تعامل مع شخص على اعتبار أنه صديق ثم أساء إليه أو لم يوفه حقوقه التى فرضتها الصداقة ، فإنه سرعان ما يوجه النقد الشديد إلى الصداقة ويشكك فى وجودها على النحو الذى سنراه عند تعرضنا لموقف الناس من الصداقة ما بين مؤيد ومعارض ، فى حين أن الخطأ وقع فيه الشخص حيث اعتبر صديقا من ليس كذلك .

فلعلكم تتوخون الدقة فى إطلاق الأوصاف على من قد يكونون فى صحبتكم عندما تلتقون بمعارف أو بأصدقاء أو بأقارب أو بجيران أو بزملاء تلافيا لمثل هذه المشاكل . وأرجو أن أكون قد نجحت فى أن أوضح لكم أهمية المفاهيم أو المصطلحات فى حياتنا العادية ، فضلا عن نشاطنا العلمى .

كذلك ، فإن معانى الكلمات قد تختلف فى بعض الأحوال ، وهو ما يدعو إلى التفرقة بين ما يسمى المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى . . فالمعنى اللغوى هو المعنى العادى للكلمة . أما المعنى الاصطلاحى ، فهو المعنى الذى تستخدم فيه الكلمة للدلالة على شىء ما قد لا تكون له علاقة بالمعنى اللغوى لها ، غير أنه كثيرا ما يتطابق المعنيان كما هو الحال فى مفهوم الصداقة .

معنى الصداقة

أولا ـ المعنى اللغوى :

فى لسان العرب : الصداقة والمصادقة : المخالة وصادقته مصادقة . وصداقا : خاللته ، والاسم الصداقة . وتصادقا فى الحديث وفى المودة . والصداقة مصدر التصديق ، واشتقاقه أنه صدقه المودة والنصيحة . والصديق : المصادق لك ، والجمع صدقاء وصدقان وأصدقاء وأصادق .

الفرق بين الصديق والصدِّيق (بالتشديد) :

والصدِّيق بالتشديد : من يلتزم بالصدق فى قوله وفعله وصحبته : ﴿واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا﴾[1]. ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون﴾[2]. ﴿ وأمه صديقة ﴾[3] ، أى ملتزمة بالصديق . والصديق لقب أطلق على الخليفة الأول أبى بكر رضى الله عنه .

ثانيا ـ المعنى الاصطلاحى :

الصداقة كقيمة اجتماعية تختلف من مجتمع إلى آخر ، فهى لدى المجتمعات العربية غيرها لدى المجتمعات الغربية ، لذلك حرصنا على تعريفها عند العرب سواء قديما أم حديثا ، حيث إن انقضاء الزمن لا يعنى انقطاع العلاقة بين ما كان وما هو قائم من عادات وتقاليد وأعراف وأخلاق وقيم ، وإنما قد تضعف بعض الشىء ولكن إلى حين ، فهى لا تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه ، وذلك لسبب هام وهو أن الأساس الذى قامت

(١) سورة مريم / ٤١ .
(٢) سورة الحديد / ١٩ .
(٣) سورة المائدة / ٧٥

وتقوم عليه وهو الدين لا يتغير . . فالمعروف أن الإسلام ليس عقيدة وحسب بل هو تشريع وأخلاق ، لذلك فإن القيم تقع داخل هذا المثلث ، وهو ما سنلاحظه فيما بعد حيث ترتبط عناصر الصداقة إما بالعقيدة و إما بالأخلاق . أما التشريع ، فإن علاقتها به عامة لا تختلف عن علاقة القيم الأخرى به .

وعلى الرغم من أن العرب لم يضعوا تعريفا أو مفهوما اصطلاحيا للصداقة اكتفاء بالمعنى اللغوى الذى وجدوا أنه يكفى للدلالة عليها على النحو الذى سلف ، غير أننا نجد فيما خلفوه من كتابات ما يعتبر مفهوما اصطلاحيا لها يتجاوز كثيرا ما للمعنى اللغوى للكلمة ، ويتطابق أو يزيد عن المعنى الاصطلاحى للصداقة فى الغرب . ليس ذلك وحسب ، بل إنهم - وكعادتهم - اهتموا ببيان الفروق التى بين علاقة الصداقة وغيرها من العلاقات الاجتماعية الودية ، وهو ما لا نجد له مثيلا لدى الغربيين . ولعل ذلك يرجع عند العرب إلى ثراء لغتهم إلى الحد الذى بلغت فيه الأسماء أو الصفات التى تطلق على الشىء الواحد العشرات وليس الآحاد . خذ - مثلا - الأسد والمرأة . وسنعرض هذه الفروق ، ولكن بعد أن نتناول المعنى الاصطلاحى للصداقة فيما يلى :

لا يختلف المعنى أو المفهوم الاصطلاحى للصداقة عن المعنى أو المفهوم اللغوى . وفى ذلك يقول أبو حيان التوحيدى : إن الصديق لفظ مشتق من الصدق ، وهو خلاف الكذب ، أو من الصدق ، حيث يقال : رمح صدق ، أى صلب، وعلى الوجهين يكون الصديق صادقا (أى غير كاذب) إذا تحدث ، ويكون صدقا (أى صلبا جادا) إذا عمل (الصداقة والصديق ص٩٤) . وعلى ذلك ، فإن الصداقة - باختصار - هى علاقة اجتماعية



● الصداقة علاقة اجتماعية وثيقة تقوم على مشاعر الحب والجاذبية المتبادلة بين شخصين أو أكثر ،

ضرورية للإنسان قوامها الصدق فى كل شىء ، وما عدا ذلك من صفات يدخلها البعض فى تعريف الصداقة تعد تزيدا لا ضرورة له ، خاصة وأنه مما يدخل فى العناصر والشروط والأهداف وغيرها على ما سنرى .

وفى المعجم العربى الأساسى (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم القاهرة ١٩٨٩) : صداقة : علاقة مودة ومحبة بين الأصدقاء .

وهذا التعريف رغم أنه مختصر ويخلو من التزيد ، فإنه يذكرنا بالذى عرف الماء بعد الجهد بالماء ، فهو يقول : إنها علاقة مودة ومحبة بين من ؟ بين الأصدقاء ، أى الأشخاص الذين عرفوا بالصدق فى علاقتهم ببعضهم بعضا ، فما ذكر عن المودة والمحبة هو التزيد ، لأنها مفترضة فى علاقة قوامها الصدق ، ويتصور أن تشمل كل ما يعرفه الناس من مشاعر سامية وأحاسيس نبيلة .

ومن التعريفات الحديثة ، ذلك التعريف الذى استخلصه الباحث أسامة سعد أبو سريع من عدد من التعريفات التى وردت فى بعض المصادر والمراجع الغربية ، قال فيه : « الصداقة علاقة اجتماعية وثيقة تقوم على مشاعر الحب والجاذبية المتبادلة بين شخصين أو أكثر ، وتميزها عدة خصائص من بينها : الدوام النسبى والاستقرار ، والتقارب العمرى فى معظم الحالات بين الأصدقاء ، مع توافر قدر من التماثل بينهم فيما يتعلق بسمات الشخصية والقدرات العقلية والاهتمامات والتفضيلات والاتجاهات والقيم والظروف الاجتماعية » .

وهو كما نرى تعريف طويل جدا جمع فيه الباحث بين أمور كثيرة ليس من المناسب إدخالها فيه (المرجع ص٤٠) كلها ، وأكثر منها ورد فى التعريفات المختلفة التى وردت فى المصادر العربية على لسان الفقهاء

والمفكرين العرب القدامى ، منها على سبيل المثال لا الحصر : صدق المودة والنصح والكرم والتسامح والثقة والطمأنينة وكمال المروءة وحسن الخلق والحلم .

وفيما يلى نبين الفروق التى توجد بين الصداقة وغيرها من العلاقات الاجتماعية ، والتى اهتم العرب بالتمييز فيما بينها ، مما يدل على عقلية علمية متقدمة جدا تؤكد عدم صحة ما يشيعه البعض من أن العرب يفتقرون إلى العقلية العلمية ، وأن كله عند العرب صابون . وهذا إن صح حدوثه ، فبالنسبة للأجيال المتأخرة التى لا تهتم لا بالمفاهيم والمصطلحات ولا باللغة عموما نتيجة لنظام تعليمى شديد التخلف ، ولحملة مغرضة ضد اللغة العربية ادعى منظموها كذبا أنها لغة صعبة بخلاف اللغات الأجنبية من إنجليزية وفرنسية و إيطالية وغيرها .

التفرقة بين الصداقة وغيرها مما يختلط بها :

أ ـ الصديق والخليل :

والخلة : الصداقة المختصة التى ليس فيها خلل .

وقوله عز وجل : ﴿ لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾(١). قال الزجاج يعنى يوم القيامة . والخلة الصداقة ، يقال : خاللت الرجل خلالا . وقوله تعالى : ﴿ من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾ (٢). والخل : الود والصديق . وقال اللحيانى : إنه لكريم الخل .

والخلة ، كلاهما بالكسر ، أى كريم المصادقة والمودة والإخاء . والخلة بالضم : الصداقة والمحبة التى تخللت القلب فصارت خلاله ، أى فى باطنه .

(١) سورة البقرة / ٢٥٤ .

(٢) سورة إبراهيم / ٣١ .

والخليل : الصديق . قال : وإنما قال ذلك لأن خلته لـ (إبراهيم عليه السلام) كانت مقصورة على حب الله تعالى ، فليس فيها لغيره متسع ولا شركة من محاب الدنيا والآخرة ، وهذه حال شريفة لا ينالها أحد بكسب ولا اجتهاد ، فإن الطباع غالبة ، وإنما يخص الله بها من يشاء من عبادة مثل سيد المرسلين . وفى الحديث : (لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا)، والحديث الآخر : (المرء بخليله ـ أو قال ـ على دين خليله ، فلينظر امرؤ من يخالل) .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ من غير وجه أنه قال : (إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا) . وقال : (لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر ، ولكن صاحبكم خليل الله) . . يعنى نفسه .

وقال ابن سيده : الخل الصديق المختص ، والجمع أخلال ، والخليل : كالخل . وقولهم فى إبراهيم عليه السلام خليل الله ، قال ابن دريد : الذى سمعت فيه أن معنى الخليل الذى أصفى المودة وأصحها ، قال : ولا أزيد فيها شيئا لأنها فى القرآن ، يعنى قوله تعالى : ﴿**واتخذ الله إبراهيم خليلا**﴾[1].

قال الزجاج : الخليل المحب الذى ليس فى محبته خلل ، مصداقا لقوله عز وجل : ﴿ **واتخذ الله إبراهيم خليلا** ﴾ . أى أحبه محبة تامة لا خلل فيها ، وقيل للصداقة : خلة ، لأن كل واحد منهما يسد خلل صاحبه فى المودة والحاجة إليه . قال كذلك ابن الأعرابى : الخليل الحبيب ، والخليل الصادق، والخليل الناصح ، والخليل الرفيق ، والخليل الأنف ، والخليل السيف ، والخليل الرمح ، والخليل الفقير . ويقول ابن تيمية (الفتاوى

(١) سورة النساء/ ١٢٥ .

ج١٠ ص٢٠٣) : الخلة هى كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله ، ومن الرب سبحانه كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه . ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل ، وكمال الحب ، فإنهم يقولون : قلب متيم إذا كان متعبدا للمحبوب ، والمتيم المتعبد ، وتيم الله عبده ، وهذا على الكمال حصل لإبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل ، إذ الخلة لا تحتمل الشركة ، وذلك بخلاف أهل الحب .

وقد أخبر الله تعالى أنه يحب المتقين ، ويحب المحسنين ، ويحب المقسطين، ويحب التوابين ،ويحب المتطهرين ، ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ، وقال : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ [1] فقد أخبر بمحبته لعباده المؤمنين ، ومحبة المؤمنين له ، حتى قال: ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ [2] . وأما الخلة فخاصة . وقول بعض الناس : إن محمدا حبيب الله ، وإبراهيم خليل الله ، والظن بأن المحبة فوق الخلة قول ضعيف ، فإن محمدا أيضا خليل الله ثبت ذلك فى الأحاديث الصحيحة المستفيضة .

إنما سمى الخليل خليلا ، لأن محبته تتخلل القلب فلا تدع فيه خللا إلا ملأته (القرطبى ج٥ ص٤٠٠) ، وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ ، قال : (اتخذ الله إبراهيم خليلا لإطعام الطعام وإفشائه السلام وصلاته بالليل والناس نيام) . وقيل معنى الخليل : الذى يوالى فى الله ويعادى فى الله .

ويقول الزمخشرى فى الكشاف (ج١ ص٥٦٦) : الخليل الذى يداخلك

(١) سورة المائدة/ ٥٤ .

(٢) سورة البقرة/ ١٦٥ .

خلال منازلك وحجبك . وهذا يعنى أن مصاحبته ليس لها حدود ، فهو معه فى أى مكان مما يستحيل تصوره بالنسبة للإنسان .

ب ـ الصديق والصاحب :

أما الصاحب فهو المعاشر ، وصاحبه : عاشره . واصطحب القوم : صحب بعضهم بعضا ، واستصحب الرجل : دعاه إلى الصحبة وكل ما لازم شيئا فقد استصحبه ، واصحبته الشيء : جعلته له صاحبا ، واستصحبته الكتاب وغيره ، واصحب الرجل واصطحبه : حفظه . وفى الحديث : اللهم اصحبنا بصحبة واقلبنا بذمة ، أى احفظنا بحفظك فى سفرنا ، وأرجعنا بأمانتك وعهدك إلى بلدنا . وفى التنزيل : ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ [1] : يجارون ، أى الكف ، وصحب الشخص : رافقه ولازمه صحبه فى سفره إلى المغرب أو إلى الحج . أى أنهما تلازما بعض الوقت ثم افترقا . قد يكونا تحدثا معا فى بعض شئونهما أو تبادلا المساعدة أو غير ذلك ، ولكن علاقتهما تظل سطحية ومؤقتة . وعموما فإنها تفتقر إلى معظم أو كل خصائص الصداقة . ومع ذلك فقد جرى غالبية الناس ـ وبالذات الشباب ـ على وصف الصديق بالصاحب فيقدمونه قائلين : صاحبى لا صديقى ، وهو خطأ شائع ، غير أنه ينبغى العدول عنه منعا للخلط ودرءا للخطأ . وإذا جاز للأميين أن يستخدموا كلمة صاحب عوضا عن كلمة صديق ، لأن فى الأخيرة حرف (القاف) الذى يصعب عليهم نطقه ، والذى ينطقونه (ألفا) فى كثير من الأحيان ، مثل : قلم التى ينطقونها (ألم) ، وقبر التى ينطقونها (أبر) ، وقليل (أليل) . . إلى غير ذلك ، فإن ذلك غير جائز للمتعلمين .

ج ـ الصاحب والقرين :

يقول أبو هلال العسكرى (الفروق فى اللغة ص٢٧٧ ، ٢٧٨) : إن ا

(١) سورة الأنبياء / ٤٣

لفرق بين الصاحب والقرين ، أن الصحبة تفيد انتفاع أحد الصاحبين بالآخر ، ولهذا يستعمل فى الآدميين خاصة . . فيقال : صحب زيد عمرا ، ولا يقال : صحب النجم النجم أو الكون الكون . وأصله فى العربية الحفظ، ومنه يقال : صحبك الله ، وسر مصاحبا ، أى محفوظا . وفى القرآن: ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ [1] أى يحفظون . وقال الشاعر : وصاحب من دواعى الشر مصطحب .

والمقارنة ، أى اقتران شىء بشىء ، فهى تفيد قيام أحد القرينين مع الآخر ويجرى على طريقته وإن لم ينفعه ، ومن ثم قيل : قران النجم ، وقيل للبعيرين : يشد أحدهما إلى الآخر بحبل يقرنان .

ويبدو لنا أن ما قاله أبو هلال فى الفرق بين صاحب وقرين ، وإن كان صحيحا فى زمنه ، فإنه لم يعد كذلك فى زماننا هذا ، حيث نسمى عقد الزواج بعقد القران . ونقول عن العروسين ـ بل والزوجين أيضا ـ قرينين ، ونتكلم عنهما ، فنقول : حضر فلان وقرينته أو حضرت فلانة بصحبة قرينها، فلم يعد وصف القرين يطلق على الشىء أو الحيوان ، وإنما أصبح يطلق على الإنسان أيضا ، وهو ما نشأ عن تطور اللغة العربية .

د ـ الصديق والحميم :

الحميمية علاقة إنسانية أيضا ، يمكن أن نفرق بينها وبين الصداقة والقرابة وغيرها ، بل إن البعض يعتبرها صداقة من نوع ممتاز أو متميز ، فيقولون عن صديق معين : إنه أنتيم بالفرنسية Intime التى هى بالإنجليزية Intimacy ومعناها ألفة أو مودة أو حميمة ، وذلك بدلا من أن يقول : صديقى الحميم، وربما يكون السبب فى ذلك أنه يرغب فى أن يعرف الناس أن تعليمه أجنبى فضلا عن أنه مثقف ثقافة غربية ، وأرجّح أن لو أحدا

(١) سورة الأنبياء / ٤٣ .

سأله عما يعنيه بهذه الكلمة أنتيم ، فإنه سيرتبك وتنتابه الحيرة لا يدرى ماذا يقول ، وقد يلجأ إلى ما يسميه بعض الشباب الفكاكة والحداقة التى هى فى أصلها حذاقة من الحذق أو المهارة ، وعلى طريقة الذين دهنوا الهواء دوكو. . يعنى أنها صداقة قوية أو (فذيعة) يعنى فظيعة ، بينما أن لغتنا العربية العظيمة والشديدة الثراء تحتوى على عبارات كثيرة ومختلفة تطلق على ضروب من العلاقات والمشاعر الإنسانية تفوق فى عددها ما لدى الغرب وغيره من المجتمعات .

والحميم : القرابة ، يقال: محم مقرب . وقال الفراء فى قوله تعالى: ﴿ ولا يسأل حميم حميما ﴾ [1] . . لا يسأل ذو قرابة عن قرابته ، ولكنهم يعرفونهم ساعة ثم لا تعارف بعد تلك الساعة .

وعند الجوهرى : حميمك قريبك الذى تهتم لأمره . كذلك عند الليث. . الحميم : القريب الذى توده ويودك ، والحامة خاصة الرجل من أهله وولده وذى قرابته . يقال : هؤلاء حامته أى أقرباؤه . وفى الحديث: (اللهم هؤلاء أهل بيتى وحامتى أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) . حامة الإنسان : خاصته ومن يقرب منه . ومنه الحديث : انصرف كل رجل من وفد ثقيف إلى حامته . (لسان العرب) .

نخلص من ذلك إلى أن حميما لا تتعلق بالصداقة ، وإنما تتعلق بالقرابة فلا يصح أن نقول : صديق أنتيم أو حتى حميم ، لأن الحميم تطلق على درجة من القرابة وليس كل القرابة ، ففى قول : إنه القريب الذى توده ويودك بحيث لا تطلق على القريب الذى ليس بينك وبينه مودة ، وفى قول: إنها تطلق على خاصة الرجل من أهله وولده ، أى زوجه وأبناءه وقرابته المقربون ، مثل : أبويه وإخوته وأخواته . أما غيرهم فلا يقال : إنهم أقارب

(١) سورة المعارج / ١٠ .

حميمين ، وهو ما يتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم . ولكن نميز بين الأصدقاء ، فنقول: صديق صدوق ـ مثلا ـ أو صديق مخلص ، ولا نقول : صديق أنتيم أو حميم .

هـ ـ الصديق والمعرفة :

يقصد بالمعرفة هنا العلاقة التى تقوم بين شخصين أو أكثر ، وترجع إلى القرب الجسمانى أو الفيزيقى بالدرجة الأولى ، والمتمثل فى التقاء الطرفين أو الأطراف لقاءات عابرة يتبادلون فيها التحية وبعض الأحاديث التى تتسم فى الغالب بالعمومية الشديدة ، مثل: السؤال عن الحالة الصحية أو حالة الطقس وغير ذلك. ويطلق وصف المعرفة على كثير من العلاقات التى تفتقر إلى العمق والاستمرارية ، ومنها علاقات الزمالة والجيرة ، والتى تخلو من الصداقة والمشاركة الفعلية ، غير أنه يرجح أن تكون مصدرا للصداقة فيما بعد.

والمعارف هم الذين قال عنهم أبو حامد الغزالى : إنهم من تربطنا بهم علاقة سابقة لا تصل إلى درجة الصداقة . ويقول : إن تعاملنا معهم يجب أن يكون قائما على الأمور الآتية : التأدب ، والتواضع ، والتحمل ، وعدم الاطمئنان إليهم، حتى وإن أظهروا المودة ، كذلك يجب أن نلتمس الأعذار لهم ، والتزام الهدوء فى مجالسهم ، وحسن الحديث ، وعدم الإلحاح عليهم فيما قد يكون لنا من حاجة لديهم ، واعتدال فى الملبس الذى نلقاهم به ، وفى الزينة التى نتخذها ، وعدم الإكثار من الالتفات والإشارة باليد أو التثاؤب(١) .

و ـ الصداقة والزمالة :

ويقصد بالزمالة المشاركة فى نشاط ما من الأنشطة المختلفة دون أن يكون

(١) بداية الهداية ، لأبى حامد الغزالى ص١٥٦ .

الهدف من العلاقة الاستمتاع بصحبة الآخرين ، وإنما يكون الغرض المنشود هو تيسير أداء كل طرف لعمله أو إنجاز مهام مشتركة ، كما هو الحال فى زمالة العمل وزمالة الدراسة وزمالة النادى أو الجمعية ، ورغم أنها قد تتضمن بعض مشاعر الحب ، إلا أن هذه المشاعر لا تكون مقصودة لذاتها ، وإنما المقصود منها هو ما تتيحه الزمالة ذاتها من اكتساب الشباب لمهارات اجتماعية تلعب دورا بالغ الأهمية فى تحقيق التوافق فى هذه المرحلة العمرية .

وقد تقوى وتتكامل بين مجموعة أفراد وترتفع معدلات الجاذبية الاجتماعية فيما بينهم ، فيؤلفون جهازا يمارس نشاطا له شأنه . ويرجع تقويم هذا النشاط إلى طبيعة العلاقات التى تسوده ، والديناميات التى تحركه ، والتوجيه الجمعى الذى يسيطر عليه .

ز ـ الصداقة والعلاقة :

على الرغم من أننا اعتدنا أن نطلق وصف العلاقة على ما يقوم بين الناس من صداقة أو زمالة أو حب ، فنقول : علاقة صداقة أو علاقة حب أو غير ذلك ، إلا أن لكلمة علاقة فى اللغة العربية مدلولا خاصا ، فهى تستخدم بمعنى وجود حب بين رجل وامرأة دون ذكر الحب . . ففى لسان العرب العلاقة : الهوى والحب الملازم للقلب ، ويقولون : علقها أى أحبها ، كما يقال : هو معلق القلب بها . والعلق : الهوى يكون بين الرجل والمرأة ، وعلق حبها بقلبه أى هويها . كذلك يقال : اعتقله أى أحبه ، ويقال : علقت فلانة علاقة أى أحببتها ، كما يقال : علاقة حب .

غير أن هناك من ميز بين الصداقة والعلاقة ، والمقصود ما كان منهما بين الرجال حيث لا صداقة بين الرجل والمرأة ، فقد سأل أبو حيان التوحيدى صديقا له يدعى أبو سليمان عن الفرق بين الصداقة والعلاقة ، فقال :

الصداقة أذهب فى مسالك العقل ، وأدخل فى باب المروءة ، وأبعد من نوازع الشهوة، وأنزه عن آثار الطبيعة ، وأشبه بذوى الشيب والكهولة ، وأرمى إلى حدود الرشاد ، وآخذ بأهداب السداد (الصواب والاستقامة) ، وأبعد من عوارض الغرارة والحداثة (أكثر بعدا عن ظواهر الغفلة والجهل الذى يكون مع حداثة السن) .

فأما العلاقة : فهى من قبل العشق والمحبة والكلف (الكلف بالشىء : الولع به) والشغف والتتيم والتهيم والهوى والصبابة والتدانف (المرض الملازم الثقيل) والتشاجى (الهم والحزن) . وهذه كلها أمراض أو كالأمراض ، بشركة النفس الضعيفة والطبيعة القوية ، وليس للعقل فيها ظل ولا شخص ، ولهذا تسرع هذه الأعراض إلى الشباب من الذكران والإناث ، وتنال منهم ، وتملكهم ، وتحول بينهم وبين أنوار العقل ، وأداء النفوس ، وفضائل الأخلاق ، وفوائد التجارب . ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزواجر والمواعظ ، ليفيئوا (ليرجعوا) إلى ما فقدوه من اعتدال المزاج والطريق الوسط .

وهذه التفرقة بين الصداقة والعلاقة تعنى أننا نخطئ عندما نجمع بينهما فى وصفنا لما بين شخصين قائلين : إنه علاقة صداقة ، فكأننا نجمع بين أمرين مختلفين على النحو الذى بينه أبو سليمان ، غير أن ذلك يعد من الأخطاء التى بلغت من الشيوع الحد الذى لم يعد أحد يفطن إليها . . فكلنا نقول : علاقة حب وعلاقة صداقة وعلاقة زمالة وعلاقة جيرة ، فى حين أن الصواب القول : بينهما صداقة ، أو بينهما زمالة ، أو إن شئنا فلنقل بينهما صلة صداقة ، كما نقول : صلة القرابة وصلة الرحم ، ففى القرآن الكريم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ (1) .

(1) سورة محمد / ٢٢ .

والتقطيع عكس الوصل ، والتقطيع كناية عن ترك المودة والتواصل وفساد العلاقات . (الرحم : القرابة وجمعها أرحام) .

أما كلمة حب ، فإنها - كما لاحظنا - تختلف فى معناها إذا ذكرت وحدها عنه إذا ذكرت مسبوقة بكلمة علاقة ، ففى الأولى يكون معناها الحب العادى الذى يشعر به غالبية الناس . أما فى الثانية فيكون معناها الحب غير العادى أو بمعنى أصح المحبة المفرطة التى تزيد عن الحد ، والذى يكاد أن يكون حالة مرضية ، على الوجه الذى بينه أبو سليمان ، والذى تصبح فيه العلاقة مرادفا للعشق الذى سنتناوله فى نهاية الفصل التالى ، والذى نفرق فيه بين الصداقة والحب .



الفصل الثانى

الصداقة والحب

على الرغم من وجوه الشبه الكثيرة بين الصداقة والحب ، فإن التمييز بينهما لا يكون صعبا حتى على أبسط الناس . صحيح أنه كثيرا ما تستخدم كلمة الحب كمرادف لكلمة الصداقة ، وبالذات بين الذكور وبعضهم البعض وبين الإناث وبعضهن ، فيقول الصديق لصديقه تعبيرا عن حميمية الصداقة وقوتها : أنا أحبك أو أنت حبيبى ، وكذلك الفتاة تقول لصديقتها نفس الكلمات ، ولكن فى الحالتين يكون هناك وعى بأن المقصود ليس الحب بمعناه الضيق وهو الذى يكون بين الذكر والأنثى ، والذى تغنى به الشعراء منذ القدم ووصفه الأدباء والروائيون ولم تخل منه أحداث التاريخ فى كل العصور ، إلى أن أصبح فى عصرنا هذا محورا للغالبية العظمى من الأفلام السينمائية والتليفزيونية والأغانى التى تعتبر الطعام اليومى لمعظم الشباب ذكورا وإناثا . ولقد عرفنا الصداقة وبقى أن نعرف الحب .

ما هو الحب .. ؟

الحب توحد عاطفى قوى مع شخص آخر يشكل أساسا علاقة اجتماعية مفضلة ، وينطوى هذا التوحد على انبثاق شخصية توجه كل طاقاتها لإسعاد المحبوب ورفاهيته . ويعتبر الحب عملية سيكولوجية اجتماعية دينامية لها أبعادها العديدة .

فمن الناحية النفسية السيكولوجية يختلف الحب عن الصداقة فى الآتى :

أن المحب يكون مفتونا بالمحبوب ، بمعنى اهتمامه الدائم به وانشغاله بالتفكير فيه ، حتى وهو فى ذروة انشغاله بأمور أخرى مهما كانت أهميتها ، ورغبته الدائمة فى النظر إليه والتأمل فيه وملازمته أينما ذهب والحديث معه .

أنه فى الحب يميل كلا الطرفين إلى الاستئثار بالآخر فى إطار من الالتزام



● الحب يختلف عن الصداقة فى شىء هام جداً ، هو الرغبة فى التفاعل الحميم الودود.

والإخلاص المتبادلين ، إلى الدرجة التى يصبح فيها قيام أى علاقة أخرى كالصداقة ـ مثلا ـ مرفوضا أو على الأقل غير موضع ترحيب . والمقصود بالصداقة هنا ما كان بين كل طرف وشخص من نفس نوعه ، أى بين ذكر وذكر ، وبين أنثى وأنثى .

وأخيرا ، فإن الحب يختلف عن الصداقة فى شىء هام جدا ، هو الرغبة فى الاقتراب الجسمانى واحتواء الآخر بدنيا أو ما يسمى بالتوحد والامتزاج اللذين وسيلتهما الجنس ، وهو ما لا يكون إلا بين ذكر وأنثى ، لا بين ذكر وذكر أو أنثى وأنثى .

أما إذا نظرنا إلى الحب على أنه علاقة اجتماعية ، فإنه يتخذ صورا كثيرة تشمل : علاقة الزوج بزوجته ، والأم بطفلها ، وعلاقة الأقارب . . وهكذا .

وهناك ما يسمى بالحب الرومانتيكى (خيالى أو عاطفى) ، وهو الذى يكون بين ذكر وأنثى ، ويقوم على التفضيل الشخصى المتبادل ، وعلى التوحد والاندماج السيكولوجى أو النفسى والاجتماعى العميق . وجدير بالذكر أن عمق الارتباط العاطفى يعتبر إلى حد ما وظيفة لنسق الأسرة الصغيرة، والتنقل الاجتماعى ، والتغير الاجتماعى ، والعزلة الاجتماعية والسيكولوجية لغير المتزوجين ، وافتقاد عالم أخلاقى واجتماعى مستقر . (قاموس علم الاجتماع ، محمد عاطف غيث) .

الصداقة بين الفتيان والفتيات :

تعتبر الصداقة بين الفتيان والفتيات من الموضوعات التى أثارتها وتثيرها بعض النساء اللاتى تصفن أنفسهن بالتقدمية والاستنارة فى العالم العربى ،

حيث يعتبرن قيام هذه الصداقة من شروط المساواة التامة بين الذكور والإناث ، وأن منعها بين النوعين يعد انتقاصا من الحقوق التى للمرأة ، ومن صور التمييز بينها بين الرجل ، وهو ما حرمته المواثيق والإعلانات الصادرة عن الأمم المتحدة .

ولما كنت ممن لا يثقون كل الثقة فيما تصدره هذه الهيئة من قرارات ومواثيق وإعلانات . . أولا : لأنها ـ ببساطة شديدة ـ لا تصدر عن إرادة دولية تمثل غالبية المجتمع الدولى ، إنما تصدر عن إرادة عدد قليل من الدول هى الدول الأوربية الغربية وأحيانا دولة واحدة هى الولايات المتحدة . ثانيا : لأن أخلاق الغرب وثقافته ليستا هما الأفضل ولا الأكثر انتشارا إنما هناك أخلاق وثقافات أفضل وأكثر انتشارا . أما من حيث الفضل ، فالأمر لا يحتاج إلى اجتهاد كبير فيكفى أن نرى ما تبيحه الأخلاق الغربية من الرذائل والموبقات كالزنا واللواط والاتجار فى الأعضاء وفى البشر واتخاذها من المرأة سلعة رخيصة واستغلال للشعوب واستنزاف لمواردها، وغير ذلك كثير مما يعرفه القاصى والدانى .

وبالنسبة للصداقة بين الشاب والفتاة التى تتحمس لها تلك الفئة من النساء لا لشئ إلا بدافع الانحياز الأعمى للغرب ولثقافته دون إعمال فكر أو تقليب نظر، وإنما هو التقليد الأعمى الذى لا يصدر إلا عن الكسالى المجردين من الموهبة المحرومين من القدرة على الإبداع والخلق، فإنه لا يتصور قيامها بدون جنس ، وذلك أمر بديهى . . فالشاب فى مرحلة المراهقة ـ وهى التى تظهر لديه فيها حاجة جديدة وخطيرة هى الحاجة إلى الجنس ، والتى تحتاج لإشباعها إلى طرف آخر هو الفتاة أو الأنثى عموما ـ هذا المراهق يتأثر بشدة بكل ما يصدر عن الفتاة من سلوك أو يتعلق بها من

أمور . وقد أشارت نتائج البحوث التى أجريت فى هذا المضمار خاصة ما أجرى فى الولايات المتحدة الأمريكية أن الصداقة بين الشابات والشباب وما ينتج عنها من مشكلات ومعاناة تتمثل فى الحمل غير الشرعى والإجهاض والأبناء غير الشرعيين ، فضلا عن المشكلات الاجتماعية والنفسية التى يعانيها الشباب ، لا نقول إناثا فقط بل وذكورا أيضا ، فهل تريد هذه الفئة من النساء أن تنتقل إلينا هذه المشكلات لمجرد أن نصبح مثل الغرب نسمح بالصداقة بين الجنسين حتى لا تكون حقوق البنات أقل من حقوق الذكور !

ثم من قال إن البنات محرومات من الحق فى اتخاذ الأصدقاء بخلاف البنين ؟! إن البنات لهن أن يتخذن الصديقات كما أن للبنين أن يتخذوا الأصدقاء ، أى أن البنت تصادق البنت والولد يصادق الولد . أما صداقة بين الجنسين فممنوعة على الذكور والإناث معا ، وبالتالى لا يصح أن يقال إنه لا مساواة بين الفتاة والفتى فى هذا الصدد .

ليس ذلك وحسب ، بل إن المنطق يجعل من المستحيل تصور خلاف ذلك ، أى الاعتراف للذكور بالحق فى اتخاذ الصديقات وعدم الاعتراف به للإناث ، لأن مقتضى أن تكون هناك صديقة للشاب أن يكون هو صديقا لها ، وبالتالى فإنه لا يمكن تصور أى وضع خلاف ذلك . وعليه ، فإن الاعتراف للشاب بالحق فى أن تكون له صديقة لا يمكن أن يتحقق إذا منعنا الفتيات من اتخاذ الأصدقاء ، وإلا فمن أين سيأتى الفتيان بفتيات يتخذوا منهن صديقات ؟!

وماذا غير الحمل غير الشرعى والإجهاض والأبناء غير الشرعيين يمكن أن تؤدى إليه الصداقة بين الفتيان والفتيات ؟!

هناك جرائم القتل والضرب والاغتصاب وغيرها التى ستقع بسبب

الصداقة بين النوعين ، ذلك لأنه وإن تصورنا إمكانية قيام صداقة بين النوعين ، فإنها لن تكون أبدا مثل الصداقة التى بين ذكر وذكر ، ولننظر إلى الشروط التى وضعها المفكرون والعلماء والأخلاقيون للصداقة لكى نرى وببساطة أنه يتعذر ، إن لم يكن يستحيل ، على البنت أن تقوم بعبء الصداقة تحت هذه الشروط بالنظر إلى ظروفها وأوضاعها ودورها فى الحياة. فماذا لو أن صديقها واجه مشكلة مالية أو أمنية أو أسرية أو غير ذلك ، هل يمكنها أن تتدخل فى صالحه ؟ بالقطع لا . . ولنفترض ، مثلا ، أن أهله أو أسرته طردته لسبب ما ، فهل يمكنه أن يلجأ إليها كما يلجأ إلى صديقه الذكر فيحصل منه على مساعدة مالية أو قرض أو أن يستضيفه فى بيته أياما إلى أن يجد لمشكلته حلا ؟ . . بالطبع لا !

والدليل على أنه من المتعذر أن تقوم الصداقة بين الفتى والفتاة فى شكلها السوى ، أننا لا يمكن أن نتصور الفتاة فى مقدورها أن تبوح بإحساسها الجنسى للفتى بالسهولة التى يمكن أن تبوح بها للفتاة .

نأتى بعد هذا إلى عدد الأصدقاء الذين يكون للفتاة أن تتخذهم . ستختلف الآراء فى هذا الصدد ، فالنساء التقدميات المستنيرات سيثرن ويقلن بعلو صوتهن لماذا تردن أن تفرضوا على البنات أن يقتصرن على عدد محدد من الأصدقاء كواحد أو اثنين أو ثلاثة ، ولماذا لا تفعلون نفس الشىء مع الذكر ؟! وقد نسمع أصواتا تنادى بعدم السماح للبنت بأن تتخذ غير صديق واحد . ولننظر إلى الافتراضين ، الأول : وهو أن تتخذ الفتاة أى عدد تشاء من الأصدقاء ، فإنه سيؤدى إلى مشكلات كثيرة غالبا ما سيترتب عليها جرائم تتفاوت فى الخطورة ، ذلك أن الشباب من الذكور لا يؤمنون فى الحقيقة بالصداقة وإنما هم كما قالت هلارى كلينتون : صيادون للإناث ،

فحتى إذا تظاهروا بالصداقة للبنات فإنهم إنما يفعلون ذلك بقصد استغلال هذه الصداقة، فى استدراجهن إلى ما يسمونه حبا ومنه إلى الجنس ، ومع تعدد الأصدقاء واختلافهم فى الظروف والأوضاع والأوصاف ، فإن الصراع سينشب بينهم حول الصديقة التى يطمع كل منهم فى أن يحظى بها . وهنا يغلب أن تقع الجرائم مثل الضرب والجرح والقتل والسرقة والإتلاف غيرها .

كذلك لا نستبعد الدور الذى ستقوم به الفتاة (الصديقة) من إثارة المنافسة بين الأصدقاء لكى تحصل منهم على أكبر قدر من الاهتمام أو من المنافع مادية كانت أو معنوية ، فهى على سبيل المثال ترغب أول ما ترغب فى أن تكون زوجة . لذلك فإنها يمكن أن تشعل الغيرة فى قلوب أصدقائها لكى تدفع أحدهم إلى الزواج منها ، إلى غير ذلك من النتائج بالغة السوء التى يمكن أن تترتب على الاعتراف بما يسمى الحق فى الصداقة للبنات .

وأوجه لهؤلاء النساء التقدميات المستنيرات النصح للعمل على تشجيع بناتنا على أن يكن صديقات لبعضهن البعض ، بل إنى أسألهن واستحلفهن أن يقلن لى : هل هن صديقات لبعضهن البعض حقا أم أنهن فى الحقيقة كما يقلن صديقات لدودات يتربصن ببعضهن الدوائر للانقضاض على بعضهن بعضا . يا سيداتى حاولن أولا أن تجعلن الأنثى صديقة للأنثى ، ثم بعد ذلك تصبح صديقة للذكر .

ثم لماذا تعجز المرأة عن أن تكون صديقة لزوجها وتصبح بعد الزواج أبعد ما تكون عن الصداقة ؟! لو أن المرأة نجحت فى أن تكون صديقة لزوجها لانخفضت معدلات الطلاق إلى أدنى حد ولعاشت الأسرة فى هدوء وطمأنينة وسعادة .

ولعل فيما نسب إلى السيدة « هلارى كلينتون » زوجة الرئيس الأمريكى السابق من أنها لما سألتها إحدى الصحفيات عن رأيها فى الرجل (تعنى الرجال عموما) أجابت قائلة وباختصار شديد لكنه غير مخل : الرجل صياد، فلما سألتها : والمرأة ، قالت: فريسته . هذا الكلام من امرأة مثل هلارى كلينتون ـ هى فضلا عن كونها زوجة لرئيس الدولة تعد من المحاميات الشهيرات فى الولايات المتحدة ، كما أنها سيدة مجتمع من الطراز الأول ـ ما يؤكد أنه لا صداقة بين الرجل المرأة تماما ، كما أنه لا صداقة بين الصياد والفريسة . هذا مع ملاحظة أن هذا الحكم ليس مطلقا ، إنما تأتى عليه استثناءات كثيرة تؤكد أنه ليس فى كل الأحوال تكون المرأة فريسة للرجل ، بل كثيرا ما يكون هو الفريسة وهى الصياد، وإن اختلفت وسائلهما وأساليبهما فى الصيد مع ملاحظة أن المرأة تفضل أن تبدو كما لو كانت هى الفريسة والرجل هو الصياد ، فإنما ذلك لأن النساء يفضلن أن يكن المطلوبات والمرغوب فيهن ،ويعتبرن خلاف ذلك ماسا بكرامتهن منتقصا من عزة أنفسهن حيث يتخذن من كون الرجل صيادا مبررا لفشلهن فى الحصول عليه باعتبار أنه الصياد ، فلا يقال إنه رفضها وإنما تقول أنها استعصت عليه كفريسة صعبة المراس . أما الرجل فإنه يا للعجب ، يرضيه هذا الزيف لأنه مغرور يحب أن يبدو أمام الناس كصائد وليس كفريسة . وسواء كانت الحقيقة هى هذه أو تلك ، فإن المتيقن فى الحالتين أن لا صداقة بين الرجل والمرأة ، وإنما الصداقة تكون بين الرجل والرجل وبين المرأة والمرأة ، وهى ميزة تنفرد بها الصداقة من دون مختلف صور العلاقات الاجتماعية كالقرابة والجيرة والزمالة والصحبة وغيرها ، فلا تقول المرأة عن الرجل صديقى ولا يقول الرجل عنها صديقتى . ولكن تقول قريبى أو زميلى أو جارى ، ويقول قريبتى أو زميلتى أو جارتى.

ولا يكتمل الحديث عن الحب إلا إذا تكلمنا عن « العشق » ، حيث إن كثيرين يعتقدون أن العشق مرادف للحب وأن الحبيب مرادف للعاشق ، والمحبوب مرادف للمعشوق وهذا غير صحيح ، فما هو العشق ؟

تعريف العشق :

العشق هو المحبة المفرطة الزائدة عن الحد الذى ينبغى ، وهو بهذا يعد من الأمراض النفسية (ابن تيمية ، الفتاوى ج١٠ ص١٢٩ ـ ١٣٠) ، لأنه شبيه بالمرض المعروف بـ (الماليخوليا) ، كذلك فإن العشق يصيب البدن بالمرض مثل الضعف والنحول والهزال .

يقول ابن تيمية : إنه من أمراض القلب الذى هو أصل محبة النفس لما يضرها كالبدين الذى يشتهى الطعام على الرغم من أنه يضره ، وإذا لم يطعم ذلك تألم، وإن أطعم ذلك قوى به المرض وزاد . كذلك العاشق يضره اتصاله بالمعشوق مشاهدة وملامسة وسماعا ، بل يضره التفكير فيه والتخيل له وهو يشتهى ذلك ، فإن منع من مشتهاه تألم وتعذب ، وإن أعطى مشتهاه قوى مرضه، وكان سببا لزيادة الألم .

ويذهب أغلب الفقهاء المسلمين إلى أن العشق مذموم مطلقا لا يمدح لا فى محبة الخالق ولا المخلوق، لأنه المحبة المفرطة الزائدة عن الحد المحمود. وأيضا، فإن لفظ « العشق » إنما يستعمل فى العرف فى محبة الإنسان لامرأة أو صبى لا ولا يستعمل فى محبة كمحبة الأهل والمال والوطن والجاه ومحبة الأنبياء الصالحين ، وهو مقرون كثيرا بالفعل المحرم ؛ إما بمحبة امرأة أجنبية أو صبى ، يقترن به النظر الحرام واللمس المحرم ، وغير ذلك من الأفعال المحرمة (المرجع السابق ص١٣١). كذلك ، فإن العشق يفسد دين العاشق وعرضه ثم قد يفسد عقله ثم جسمه. ومن فى قلبه مرض الشهوة

وإرادة الصورة ، أى العاشقَ متى خضع المطلوب أى المعشوق طمع المريض ، وهو الطمع الذى يقوى الإرادة والطلب ، ويقوى المرض ، وذلك بخلاف ما إذا كان آيسا من المطلوب ، فإن اليأس يزيل الطمع ويضعف الإرادة فيضعف الحب . والإنسان لا يريد أن يطلب ما هو آيس منه، فلا يكون مع الإرادة عمل أصلا ، بل يكون حديث نفس إلا أن يقترن بذلك كلام أو نظر ونحو ذلك فيأثم بذلك .

لكن المعلوم بأدلة الشرع أنه إذا عف عن المحرمات نظرا وقولا وعملا وكتم ذلك ، فلم يتكلم به حتى لايكون فى ذلك كلام محرم . . وهو على طاعة الله ، ويتجنب معصيته ، ويصبر على ما فى قلبه من ألم العشق ، كما يصبر المصاب على ألم مصيبته ، فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر، والله تعالى يقول : ﴿ إنه من يتق الله ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[1] .



(١) سورة يوسف / ٩٠ .

الفصل الثالث

خصائص الصداقة

بعد أن عرفنا الصداقة وبينا ما يقوم بينها وبين أشكال العلاقات الاجتماعية الأخرى من فروق ، نتناول فى هذا الفصل ما تتميز به الصداقة من خصائص لابد من أن يلم بها الناس ، سواء منهم من كان على علاقة صداقة قائمة بالفعل، أو من يرغب فى الدخول فى صداقة جديدة .

فللصداقة ، باعتبارها علاقة اجتماعية عميقة ووثيقة ، خصائص عديدة تتميز بها نتناولها فيما يلى :

أولا - إن الصداقة تجعل من يرتبطون بها يعتمدون على بعضهم بعضا فى تبادلية تلقائية وليست محسوبة، وإلا فقدت العلاقة وصف الصداقة وتحولت إلى نوع من المقايضة ذات طبيعة مادية فجة . ويتمثل الاعتماد المتبادل فيما يقوم به كل طرف من أطراف الصداقة من تأثير فى مشاعر ومعتقدات وسلوك الطرف أو الأطراف الأخرى .

ولعل ما قاله أعرابى لرجل سأله النصيحة فيمن يتخذه صديقا يوضح هذه الخاصية من خواص الصداقة ، فقد قال : اتخذ من ينظر بعينك ، ويسمع بأذنك ، ويبطش بيدك ، ويمشى بقدمك ، ويضع رحاله حيث تهوى وتحب ، لا يرى سواك . اتخذ من إن نطق فكأنه فيما يقول يستوحى عقلك وفكرك يطلب إليهما أن يمليا عليه لينطق بما يمليان ،و إن نام فبخيالك يحلم ، وإن انتبه فبك يلوذ ، وإن احتجت إليه كفاك ، وإن غبت عنه دعاك ، يستر فقره عنك لئلا تهتم له ، ويبدى بشره لئلا تنقبض عنه .

ثانيا - إن الصداقة ، على خلاف غيرها من العلاقات كالزمالة والمعرفة والصحبة ، تسمح للأصدقاء بأن يناقشوا كل أمور حياتهم تقريبا ، بما



● كذلك ، فإن الصداقة تتيح للأصدقاء أن يشتركوا معا فى أنواع متنوعة من النشاطات والاهتمامات

تشتمل عليه من أنشطة واهتمامات بصراحة وصدق وشفافية . وتعتبر هذه الخاصية من أهم خواص الصداقة ، التى تميزها عن غيرها من العلاقات الاجتماعية ، حيث تقتضى أن تشمل الأحاديث التى تدور بين الصديقين الموضوعات شديدة الخصوصية . وأن يعرف الصديق المعلومات الدقيقة والخاصة المتعلقة بصديقه ، مثل : همومه وتطلعاته وطموحاته ، بالإضافة إلى سماته الشخصية . وإن كان هناك رأى يذهب إلى أن هذا النمط من العلاقات الوثيقة لا يظهر إلا فى مرحلة عمرية معينة هى مرحلة المراهقة المبكرة ، لأنه يتطلب توافر حد أدنى من القدرة على فهم مشاعر وأفكار الطرف الآخر . كما أن هناك رأى يذهب إلى عدم اطلاع الصديق على الأمور الخاصة جدا .

كذلك ، فإن الصداقة تتيح للأصدقاء أن يشتركوا معا فى أنواع متنوعة من النشاطات والاهتمامات ، كل ذلك استجابة لدواعى الصداقة وتأكيدا لها . قال أبو عامر النجدى : الصديق من تحدث معك بالصدق عن نفسه ليكون على نور من أمرك ، ويصدقك أيضا عنك لتكون على مثله ، لأنكما تقتسمان أحوالكما بالأخذ والعطاء فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، فليس لكما فرحة ولا ترحة (الغم والحزن) إلا أنتما تحتاجان فيهما إلى الصدق والمساعدة على اجتلاب الحظ فى طلب المعاش . أما العلاقات السطحية كالزمالة والمعرفة ، فإنها تقتصر غالبا على موضوع واحد أو موضوعات عابرة وقليلة الأهمية .

وهنا وبالمقابل تظهر خاصية أخرى للصداقة ، وهى التى يطلق عليها النفسيون التنبيه stimulation . وهى عبارة عن عملية تنشيط وتوسيع للأفكار والمعارف والرؤى الشخصية التى لدى الأصدقاء ، وذلك من خلال المناقشة والحوار .

ثالثا - إنه فى الصداقة يكون كل طرف قادرا على استثارة انفعالات قوية لدى الطرف الآخر ،وهو أمر يرتبط بخاصية الاعتماد المتبادل بين الأصدقاء، ويعد مصدرا لكثير من المشاعر الإيجابية السارة غالبا وغير السارة أحيانا (١). وفى ذلك قال أبو سفيان : الصديق لا يراد ليؤخذ منه شيء ، أو ليعطى شيء ، لكن ليسكن إليه ، ويعتمد عليه ، ويستأنس به، ويستفاد منه ، ويستشار فى الأزمات ، ويتزين به إذا حضر، ويتشوق إليه إذا سافر ، والأخذ والعطاء فى عرض ذلك جاريان على مذهب الجود والكرم بلا حسد ، ولا نكد ولا غرض ، ولا منع ، ولا تبادل للوم ، ولا عبوس مفرط ، ولا زهو بالنصر أو فخر بالرزق، ولا غمز أو لمز بأمور منكرة، ولا كيد أو قهر . فهو هنا يستبعد كل المشاعر السلبية التى يعتبرها مناقضة للصداقة .

رابعا - من خصائص الصداقة أيضا المساندة ،ونعنى بها وقوف الأصدقاء إلى جانب بعضهم البعض فيما يواجهونه من ظروف تحتاج إلى تضافر الجهود . ويلى المساندة التشجيع ، ذلك أن بعض الأصدقاء قد لا يستطيعون أن يساندوا صديقهم لسبب أو لآخر ، وبالتالى فإنهم يقدمون له التشجيع شدا لأزره ودعما لموقفه ، وهو ما يؤدى ، لا إلى زيادة الثقة بالنفس - ونعنى هنا نفس الصديق ونفس أصدقائه ، سواء منهم الذين ساندوه أو الذين شجعوه - فحسب ، بل وقيامه هو وأصدقاؤه بإجراء تقويم إيجابى لذواتهم بعد الذى حدث ليعرفوا مواضع النقد فى تصرفاتهم .

خامسا - كذلك ، فإن الصداقة تتيح للصديق أن يتحقق من صحة ما لديه من أفكار وآراء شخصية عندما تسنح الفرص التى تمكنه من الإفصاح

(١) أسامة سعد أبو سريع ، الصداقة من مظور علم النفس ، ص ٣٨ .

عنها ، فالمعروف وبالذات بالنسبة للشباب أن أفكارهم وآراءهم تكوّن نظرية فى الغالب لا يمكن الحكم عليها إلا بعد وضعها على محك التجربة والتطبيق، فإما ثبت لهم صوابها ، وإما ظهر لهم العكس . وعندئذٍ يقومون بتغييرها أو تعديلها من أجل أن تصبح قابلة للتطبيق .

سادسا ـ ومن خواص الصداقة أيضا طول عمرها كما يقولون واستقرارها النسبى ، فهناك صداقات تستمر ما استمر أطرافها على قيد الحياة تتمتع بقدر كبير من الاستقرار . وهناك صداقات أخرى تستمر أقل من ذلك بكثير أو بقليل لأسباب مختلفة كما أنها تفتقر إلى الاستقرار ، وهو الغالب هذه الأيام نظرا للتحولات الاقتصادية السريعة وما صاحبها من تغيرات اجتماعية شديدة جعلت الغلبة للقيم المادية ، الأمر الذى أدى إلى انحسار واضح فى القيم التقليدية التى عشنا عليها طويلا ، ومن بينها الصداقة التى أصبحت علاقة نفعية محضة يحاول أطرافها استغلال بعضهم البعض إلى أبعد مدى. وهو ما لوحظ بدرجة أكبر فى الصداقة بين الذكور مقارنة بالصداقة بين الإناث ، وفسره جيوردانو بأن صداقات الذكور أقل عمقا ، وبالتالى فهى أقل تعرضا للخلاف والصراع ، وهو ما يؤدى إلى قدر أكبر من الاستقرار .

سابعا ـ كذلك، فإن الصداقة تتيح للمرتبطين بها أن يحققوا لأنفسهم نفعا مباشرا منها ،و ذلك بما يقومون به نحو بعضهم بعضا من تسخير للوقت والجهد وكافة إمكاناتهم الشخصية سواء كانت مادية أو غير مادية لخدمة بعضهم وتلبية مطالبهم . وهو ما عبر عنه بوضوح شديد محمد بن على بن الحسين الباقر لما قال لأصحابه : أيدخل أحدكم يده فى جيب صاحبه فيأخذ منه حاجته من الدراهم والدنانير ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم إذًا بأصدقاء .

كما أن الأصدقاء لا يضنون على بعضهم بعضا بوقت ، فهم يلتقون كلما وجدوا لديهم وقت فراغ لا يشغله عمل أو شئون الأسرة ، لما يجدونه فى ذلك من إحساس بالمتعة وشعور بالرضاء لا يجدونه فى أى علاقة أخرى ، سواء كانت قرابة أو حب أو زمالة ، اللهم إلا إذا اقترنت إحداها بالصداقة . وعندئذٍ تكون هى مصدر السعادة والرضا وليس سواها . وما ذلك إلا لأن الصداقة تقدم للصديق زادا فكريا عقليا لا ينضب فضلا عن الزاد العاطفى ، الأمر الذى يجعلها علاقة متكاملة ، وهو ما لا يتوفر فى غيرها من صور العلاقات الاجتماعية. ولقد قيل لأعرابى : أبالصديق أنت آنس أم بالعشيقة ؟

فقال : يا هذا ، الصديق لكل شىء : للجد والهزل ، للقليل والكثير ، ولا عاذل عليه ، لا قادح فيه ، وهو روضة العقل وغدير الروح . فأما العشيقة ، فإنما هى للعين وبعض الريبة ، والعدول عنها من أجله سريع ، وفى الولوع بها إفراط من جوى ، وحد موقوف دونه ، فأين هذا من ذاك . وهكذا ، عبر الأعرابى الذكى المجرب بدقة ووضوح تامين عما يشعر به الإنسان نحو كل من الصديق والحبيبة أو العشيقة ، وكيف أن كفة الأول هى الراجحة دائما . وحتى إذا رجحت كفة الحبيبة أو العشيقة فى أول الأمر، فإنها لا تلبث أن تفقد رجحانها لمصلحة الصديق ، أو كما قال الأعرابى : والعدول عنها من أجله سريع .

ومن استعراضنا لخصائص الصداقة ، يمكننا أن نرد على ما يثار من تساؤلات بشأن الصداقة ، وما إذا كان يمكن أن تقوم بين أشخاص يقيمون بعيدا عن بعضهم البعض ، سواء عن طريق الخطابات البريدية أو بالفاكس أو بواسطة أشرطة التسجيل الصوتى أو بالصوت والصورة أو بواسطة الكومبيوتر والإنترنت ؟

الصداقة على البعد: (بالبريد ـ بالفاكس ـ بالهاتف ـ بالإنترنت وغيره)

كثيرا ما نسمع أو نقرأ عن الصداقة عن بعد تحت مسميات مختلفة ، مثل : الصداقة بالمراسلة ، سواء عن طريق البريد (عادى وإلكترونى) ، وهو الذى تروج له كثير من الإذاعات والصحف والمجلات ، أو عن طريق شرائط التسجيل، ما كان منها بالصوت فقط أم بالصوت والصورة معا (فيديو) أو عن طريق الإنترنت . فهل إطلاق وصف الصداقة على العلاقات التى تقوم بواسطة هذه الأساليب صحيح أم غير صحيح ؟

على الرغم من أن الذين يرغبون فى الحصول على إجابة لهذا السؤال ، لو أنهم راجعوا ما قلناه عن خصائص الصداقة سيجدون فيها الإجابة واضحة جليه ، إلا أننا رأينا ، زيادة فى الإيضاح ، ذكر الشروط التى يجب توافرها من أجل أن تقوم الصداقة بالمعنى الصحيح . وهذه الشروط هى :

أولا ـ الاشتراك فى البيئة .

ثانيا ـ الاشتراك فى الأهداف .

ثالثا ـ الاشتراك فى المصلحة .

رابعا ـ القرب المكانى .

خامسا ـ ما يعرف بالإدراك أو الوعى .

أولا ـ الاشتراك فى البيئة :

ونعنى بالبيئة هنا المفهوم الأوسع الذى يمتد من كوكب الأرض الذى نعيش عليه إلى أقل جزء من الأرض يمكن تصوره ، مثل : الحارة أو الزقاق ، بل قد لا يكون الشىء أرضا ، وإنما سفينة أو مركبا صغيرا أو حتى طائرة تقوم بين ركابها أهدافا مشتركة . فكوكب الأرض هو البيئة التى تشترك

فيها الإنسانية كلها فتدرك وتفكر وتتخيل وتخاف ، وتشتهى وترتعش ، تأمل فى نفس الموضوعات أو فئات الموضوعات ، مثل : الشمس والقمر والنجوم ، والعناصر ، والطعام والشراب ، والميلاد والموت ، والحيوانات والناس من نفس الجنس أو من الجنس الآخر .

ثانيا ـ الأهداف المشتركة :

وهذه الأهداف يستوى أن تكون أهدافا معرفية أم أهدافا مصلحية . وأقرب مثال للأهداف المشتركة للبشرية ما أصبح يعرف بـ « ثقب الأوزون » الذى تنصرف الجهود ، على مستوى العالم ، إلى القضاء عليه منعا لما سيؤدى إليه من أضرار شديدة تصيب الإنسان وغيره من الكائنات التى تعيش على الأرض ، وكذلك مشكلة تلوث البيئة . . وغيرها .

ويزيد التشابه فى الموضوعات التى ينظر إليها الناس كأهداف مشتركة بحسب القرب ، سواء فى المكان أو فى الزمان . . فبعد الأرض تأتى القارات فالدول فالمدن فالقرى ، ثم تأتى الجماعات على اختلافها ، مثل : المدرسة والجامعة والنادى فالجيرة . وفى هذه جميعا يوجد « اشتراك فى الأهداف » بين الجماعات التى تتكون منها هذه البيئات ، فعلى مستوى القارات توجد أهدافا مشتركة لسكان قارة أوربا تتمثل فيما يسمى الاتحاد الأوربى أو منظمة الوحدة الأوربية ، وفى إفريقيا توجد منظمة الوحدة الإفريقية ، وفى المنطقة العربية توجد جامعة الدول العربية ، وكذلك فى أمريكا الجنوبية وآسيا توجد المنظمات التى تجسد الاشتراك فى الأهداف بين سكان كل قارة . أما على مستوى العالم ، فهناك منظمة الأمم المتحدة التى تمثل « الاشتراك فى الأهداف » الذى يجمع بين سكان الكرة الأرضية .

ثالثا ـ الاشتراك فى المصلحة :

ثم يأتى العنصر الثالث ، وهو عنصر المصلحة ، ذلك لأن الاشتراك فى

الأهداف لا بد أن يكون وراءه مصلحة يرغب المشتركون فى بلوغها ، لذلك فإن تشابه المصالح عنـدما يقتـرن بالقرب ، فـإنه يكيف الإحساس بالزمالة أولا ، ثم بالصداقة . فالشاب المصرى ، على سبيل المثال ، يختلف عن نظيره الأمريكى ، ليس فى البيئة فقط ، وإنما فى الأهداف المشتركة أيضا ، ومن ثم فى المصلحة . . فالشاب الأمريكى يشترك مع مواطنه الأمريكى فى الأهداف وفى المصالح . ومن هذه الأهداف ، على سبيل المثال لا الحصر ، الحفاظ على التفوق العسكرى لإسرائيل على الدول العربية مجتمعة ، بما فيها مصر وإيمانه بأن ذلك من مصلحة وطنه ، الولايات المتحـدة الأمريكية . فى حين أن الشاب المصرى ، بل والعربى فى أى مكان يشترك فى الأهداف مع نظيره المصرى أو العربى مثل أن يكون العرب متفوقون على إسرائيل عسكريا ، حتى يمكنهم أن يدافعوا عن أوطانهم عندما تهاجمها هذه الدولة العدوانية التوسعية من أجل تحقيق هدفها المعلن « من النيل إلى الفرات ملكك يا إسرائيل » . وهو التفوق الذى يعتبر الشباب العربى أن فيه مصلحة للدول العربية جميعا ، ما كان منها مجاورا لإسرائيل وما ليس كذلك . وعليه ، فإنه لا يتصور قيام صداقة بين الشاب المصرى أو العربى والشاب الأمريكى لما يوجد بينهما من اختلاف فى الأهداف المشتركة وفى المصالح ، اللهم إلا إذا تخلى أحدهما عن إيمانه بالأهداف المشتركة لقومه ومجتمعه وكذلك عن مصالحهما . وعندئذٍ يثور التساؤل حول إخلاصه لأمته وولائه وانتمائه لوطنه .

ولما كنا قد قلنا : إن زيادة أو نقص التشابه فى الموضوعات الداخلة فى نطاق الأهداف المشتركة يرتبط بعنصرى المكان والزمان ، وبينا ما يتعلق بالمكان دون الزمان ، فإننا نتناول هنا ما عنيناه بعنصر الزمان ، ونضرب له مثالا بما جرى ويجرى فى فلسطين المحتلة التى ظلت من الموضوعات الداخلة

فى نطاق الأهداف المشتركة وظل تحريرها من الاحتلال الإسرائيلى الاستيطانى هدفا ومصلحة لكل العرب منذ عام ١٩٤٨ وإلى الآن ، بل وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها . غير أنه كثيرا ما جاءت الأيام بتغيرات أدت إلى ضعف الاهتمام بالهدف وبالمصلحة معا ، ورواج أفكار جديدة وظهور دعاوى كاذبة زعم أصحابها أن للعرب والإسرائيليين أهدافا ومصالح مشتركة وليس العكس ، استطاعوا أن يضللوا بعض الشباب ، فى مصر وفى غيرها حتى أقنعوهم بصحة مزاعمهم وصدقها ، فسافر منهم من سافر إلى إسرائيل ، وتزوج منهم من تزوج من نسائها ، وارتبط منهم من ارتبط بما أسماه صداقة مصرية أو عربية إسرائيلية ، واستكان الجميع إلى الخديعة غير مدركين أن للصداقة عناصر وشروطا لا تقوم بدونها ، إلى أن أقدمت إسرائيل ممثلة فى أحد زعمائها المتعصبين المجرمين ويدعى « آرييل شارون » على تلويث وتدنيس المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين فى تحد وقح سافر لمشاعر المسلمين فى كل مكان فى مقدمتهم العرب منهم ، فلما عبر الفلسطينيون عن غضبهم وأعلنوا ثورتهم أو كما يحلو للإعلام العربى أن يسميها « انتفاضتهم » لم يتردد الأصدقاء اليهود فى إطلاق نيران بنادقهم ورشاشاتهم بل وصواريخهم عليهم دون أن يفرقوا بين الشيخ والطفل والمرأة والرجل ، فقتلوا ما يزيد على الخمسمائة شهيد وأصابوا وجرحوا أكثر خمسة وعشرون ألف فلسطينى كثير منهم أصيبوا بعاهات مستديمة ربما أراد اليهود أن تكون رمزا للصداقة مع العرب !

وهكذا أثبتت هذه الأحداث أن الاشتراك فى الأهداف وفى المصالح يتأثر لا بالمكان وحسب بل بالزمان أيضا ، وبالتالى فإن الأهداف المشتركة والمصالح قد تتغير مع الزمن إما كليا أو جزئيا ، لكن أن تبقى كما هى فهذا من المستحيل ، لأن سنة الحياة التغيير .

رابعا ـ القرب المكانى:

ثم يأتى عامل القرب ، وهو شرط أساسى فى الصداقة حيث لا يتصور أن تقوم صداقة بالمعنى الحقيقى بين اثنين يقيم كل منهما بعيدا عن الآخر ، فى قارة أخرى ، أو فى دولة أخرى أو فى مدينة أخرى . ذلك لأن الصداقة تقوم على التفاعل المستمر بين طرفيها . وهناك المثل الشعبى الذى يعبر عن ذلك أوضح تعبير ، والذى يقول « البعيد عن العين بعيد عن القلب » ، أى أن الشخص الذى لاتقع عليه عيناك أو الذى لا تقع عيناه عليك يكون بعيدا عن قلبك وتكون بعيدا عن قلبه . والسبب بسيط ، وهو أنك طالما لا ترى هذا الشخص ، فإنك لا تعرف ما يكون عليه حاله من فرح أو حزن ، من صحة أو مرض ، من رضا أو غضب إلى آخره. كذلك فإن القرب يمكن الأصدقاء من اللجوء إلى بعضهم فى الملمات والاستعانة ببعضهم بعضا فى الأزمات ، وعموما المشاركة الدائمة فيما يصادفونه من أفراح وأتراح والوقوف إلى جانب بعضهم البعض فى جميع الأحوال ، وفى هذا اختبار لصدق الصديق ووفائه وإخلاصه . أما الصداقة على البعد فتقتصر على الكلام ، ولا شىء غير الكلام الذى لا يدرى الشخص مدى صدقه وإخلاص قائله .

قد يقول البعض : لو أن القرب المكانى كان بهذه الأهمية لرأينا الصداقة تقوم بين كل من يجتمعون فى مكان واحد وبانتظام ، مثل : التلاميذ فى المدارس والطلبة فى الجامعات ، بل والإخوة والأخوات فى الأسرة ، والزملاء فى العمل إلى آخره . ولكن الملاحظ أن هؤلاء وأولئك نادرا ما تقوم بينهم صداقة بل كثيرا ما يقوم العداء فيما بينهم . وعليه فإن القرب المكانى قد لا يكفى لقيام الصداقة ، بل ولا الرؤية الدائمة تكفى .

ولهؤلاء أقول : إن القرب المكانى إن لم يكن شرطا فى قيام الصداقة ، إلا أنه شرط لاستمرارها . صحيح أنه ليس بشرط أن كل من يتواجدون فى مكان واحد تقوم بينهم صداقة ، وإن كنا نلاحظ أن الصداقة كثيرا ما تقوم بين الزملاء فى المدرسة وفى الجامعة وفى العمل وفى النادى بل وبين الجيران ، وذلك لسبب بسيط ، هو أن القرب المكانى يتيح للشخص التعرف على آخرين والتعامل معهم بما يجعله على بينة من أخلاقهم وطباعهم وعاداتهم وميولهم ، وغير ذلك مما تحتاج إليه الصداقة الصحيحة والسليمة .

كذلك ، فإن القرب المكانى يكون هو فى الغالب الذى يجعل هناك أهدافا ومصالح مشتركة تماما كما بين الطلبة فى الدراسة والزملاء فى العمل وبين الجيران فى السكن . . وهكذا . وعليه ، فإن القرب المكانى لا يكفى وحده لقيام الصداقة ، وإنما يجب أن يكون هناك تفاعلا بين الأشخاص الذين يقيمون فى المكان ؛ وتعد الأسرة المثال الواضح لأهمية التفاعل ، فعلى الرغم من اشتراك أعضائها فى الدم وفى المكان ، فإنه بدون التفاعل الوجدانى المستمر بينهم لا يمكن أن تقوم صداقة ، وهو التفاعل الذى يتغلغل بين الزوج والزوجة ، والآباء والأبناء ، والإخوة والأخوات . لذلك ، فإننا نلاحظ ما يحدث نتيجة لابتعاد الآباء عن أبنائهم والأزواج عن زوجاتهم لمدد تمتد إلى سنوات ، فإن الفتور يصيب علاقاتهم الحميمة التى تتحول إلى علاقة مصلحة مادية لا أكثر .

وإذا كان المجتمع هو جوار بين أناس يتشابهون جزئيا لهم بيئة مشتركة على نحو ما ويرتبطون بينهم بمصالح محددة ، فإن الصداقة التى هى رابطة اجتماعية بين أفراد هذا المجتمع لا يمكن أن تقوم غير مستوفية لهذه الشروط .

خامسا ـ الإدراك أو الوعى :

وأخيرا . . يأتى الشرط الخاص بما يسمى الوعى أو الإدراك ، والذى يعد

الحد الأدنى لحدوث التفاعل على المستوى الشخصى ، وأن يكون إدراكا متبادلا بين طرفى العلاقة وليس من طرف واحد . ذلك لأنه لا يكفى أن توجد أهداف مشتركة ومصالح ، وإنما يجب أن يكون هناك إدراك متبادل يقوم عليه الاتصال أو التفاهم ، وهما اللذان بواسطتهما يقوم التعارف بين شخصين أو أكثر، عن طريق اللغة أو بواسطة رموز أكثر بدائية يستخدمها الطرفين ، غير أنه يمكن أن تقل أهمية اللغة إذا كان أحد الشخصين يعرف بشكل جيد لغة الآخر ويستخدمها جيدا فى التفاهم معه أو الاتصال به ، مثل : شبابنا الذين يجيدون اللغة الإنجليزية أو الفرنسية .

ولكن، هل تكفى اللغة لتوفر الإدراك أو الوعى لدى الأشخاص بالعناصر الأخرى اللازمة لقيام الصداقة فيما بينهم ، أم أنه يلزم توفر شرط آخر إلى جانب إجادة اللغة ؟

والإجابة : هى أن معرفة اللغة إلى حد الإجادة لا يكفى وحده لتوفر الوعى أو الإدراك على النحو الذى أسلفناه ، ذلك لأن اللغة ليست فى الحقيقة مجرد أداة للتفاهم بين الناس فقط ، ولكنها أيضا وسيلة تساعد على خلق مجموعة من الموضوعات الاجتماعية الدائمة ، بواسطة السجلات المكتوبة أو التراث الشفهى. . فالكلمات والرموز الأخرى لا تشير إلى الموضوعات فقط ، ولكنها تشير إلى موضوعات مشتركة يعلم مستخدموها أنها كذلك . ولنأخذ مثالا هو كلمة دير ياسين ، فهى إذا وردت فى قاموس جغرافى أجنبى سيقتصر وصفها على أنها قرية أو مدينة صغيرة فى فلسطين أيام أن كانت تحت الانتداب البريطانى ، ثم أصبحت جزءا من دولة إسرائيل . هذا ما سيقرأه الشخص الأجنبى وما سيعرفه عن دير ياسين . أما القارئ العربى ، فإن وعيه بالمعنى سيتجاوز هذا بكثير إلى ما حدث لأهل هذه القرية البائسة فى عام ١٩٤٨، حيث هاجمتها العصابات الإجرامية

اليهودية فذبحتهم عن بكرة أبيهم دون تفرقة بين الشاب والكهل أو بين الرجل والمرأة أو البالغ والطفل حتى ولو كان رضيعا ، وفيما بعد برر اليهود ذلك قائلين : إن ذلك كان بهدف إشاعة الرعب فى نفوس بقية سكان فلسطين فيبادرون إلى الفرار تاركين وطنهم لهذه الطغمة المجرمة . كذلك إذا ذكر المسجد الأقصى ، فإن الأجنبى سيدركه كمكان مقدس لدى المسلمين يؤدون فيه الصلاة . أما العربى ، فإنه سيدركه بشكل آخر على نحو ما يحدث الآن .

ولا يقتصر اختلاف الوعى أو الإدراك على الأمور المادية كالقرية والمسجد، وإنما يشمل فيما يشمله الأمور المعنوية ، مثل : الصداقة والحب والحميمية وغيرها ، فهى وإن بدت وكأنها تشير إلى نفس المعنى فى اللغتين العربية والإنجليزية أو الفرنسية ، فإنها فى الحقيقة تختلف فى هذه اللغة عنها فى تلك على النحو الذى بيناه فى تناولنا لهذه الأمور .

ليس ذلك وحسب ، بل إن اللغة بصفة عامة تمتلئ بمفردات وتعابير تحمل معان غالبا ما لا يفهمها لأول وهلة غير المتكلمين بها . . مثال ذلك : أن يقدم مواطن مصرى أخته المتزوجة إلى الأجانب الذين حضروا معه إحدى الحفلات التى أقامتها سفارة الولايات المتحدة أو بريطانيا فى القاهرة قائلا : مسز وجدى، وهو اسم أبوهما ، فما سيتبادر إلى أذهان الحاضرين هو أنه إما زوجها وإما زوجة أبيه ، لا أنه أخاها ، حيث إن المرأة فى الغرب تنسب إلى أسرة زوجها وليس إلى أسرة أبيها . أما إذا قال : مس وجدى ، فإنهم سيفهمون أنها أخته ولكنها غير متزوجة !

كذلك فى الكلمات التى تعبر عن المشاعر والأحاسيس ، مثل : الخوف والرجاء والأمل والإيمان . . وغيرها ، فإنها تختلف فى مدلولها من لغة إلى أخرى ، وبالتالى يعجز الأجنبى عن إدراك معناهاوالوعى بمضمونها ، ومن ثم يفشل فى إقامة صداقة حقيقية مع من يختلفون معه فى اللغة .

فما بالنا إذا كانت لكثير من الشعوب لغتان لا لغة واحدة . . إحداهما تعرف باللغة الراقية أو الفصحى ، والأخرى تعرف باللغة أو اللهجة الشعبية أو العامية ، أى التى يتكلمها العامة كما هو الحال فى عالمنا العربى! وكم صادفت من أجانب إنجليز أو فرنسيين أو من غير هاتين الجنسيتين تعلموا العربية الفصحى إلى حد الإجادة ، ومع ذلك ظلوا عاجزين عن التفاهم لا مع العوام فحسب ، بل مع من هم أرقى منهم قليلا ممن لا يجيدون الكلام بالفصحى وما أكثرهم .

كذلك ما نلاحظه من اصطناع الشباب فى أيامنا هذه لغة ثالثة يتفاهمون بها فيما بينهم ، مثل : مونون ومتروشن ومبرشم ومبنج . . وغيرها . فضلا عن استخدامهم لكلمات فى غير معناها ، الأمر الذى يجعل من الصعب على من لم يكن فى مرحلة الشباب أن يقيم صداقة مع أحدهم . صحيح أنهم لا يلبثون أن يكفوا عن استخدام هذه الكلمات أو التعبيرات عندما يزدادون نضجا ، غير أن بلوغ آخرين مرحلة الشباب يبقى على هذه اللغة متداولة ، بل ويضيف إليها المزيد من الكلمات والتعبيرات .

وهكذا ، فإن قيام علاقة صداقة ، على البعد ، بواسطة البريد العادى أو الإلكترونى أو الفاكس أو الهاتف أو بواسطة الأشرطة التى يسجل عليها الصوت أو الأشرطة التى يسجل عليها الصوت والصورة معا (أشرطة الفيديو) أو عن طريق الإنترنت ، سواء اقتصر على تبادل الرسائل المكتوبة فقط أو امتد إلى رؤية أحد الطرفين للآخر على شاشتى الإنترنت بواسطة الجهاز الذى ينقل الصور بين الطرفين ، يكون متعذرا . وحتى لو نجح شخصين فى إقامة علاقة من نوع ما فيما بينهما على البعد ، فإنها لا تعد صداقة بالمرة .

* * *

الفصل الرابع

كيف
تتخذ صديقا..؟!

بعد أن عرفنا خصائص الصداقة ، بقى أن نبين لمن يرغبون فى اتخاذ أصدقاء كيف يمكنهم أن يفعلوا ذلك وبنجاح ؟! حيث إن اتخاذ الأصدقاء ليس عملا سهلا كما قد يظن البعض ، إنما هو من الأعمال التى تحتاج إلى جهود كبيرة ، وتتطلب توفر شروطا معينة بدونها لا تقوم الصداقة أو على الأقل يكون عمرها قصيرا ، وقد تخلف مشكلات تنغص على طرفيها حياتهما .

ولكن لعله يجدر بنا ، قبل أن نبدأ فى بيان كيفية اتخاذ الأصدقاء ، أن نلفت انتباه القارئ العزيز إلى أن للصداقة أعداء لا يؤمنون بها ، كما أن لها أنصارا يتحمسون لها ، وأن لكل حججه التى يبرر بها رأيه ويدعم بها موقفه . بالإضافة إلى هذين الفريقين ، يوجد فريق ثالث لا هو مع الصداقة ولا ضدها ، ويضم من نسميهم بالهامشيين الذين يقفون على هامش الأحداث لامبالين تارة ومترددين أخرى ، قد ينضمون إلى هذا الفريق أو إلى ذاك فجأة ، وبدون مقدمات أو مبررات . وفيما يلى نعرض آراء الفريقين ، المؤيد للصداقة والمعارض لها ، لكى نترك لك حرية اختيار أيهما تنضم إليه . هذا إذا كنت لا تزال إلى الآن تقف من الصداقة على الهامش . أما إذا كنت تؤيدها وتؤمن بها ، فإن العرض سيزودك بحجج قوية تدعم بها رأيك وتسند موقفك أمام الذين يعادون الصداقة ممن قد تكون على علاقة بهم . أما إذا كنت ممن يناصبونها العداء ، فإننا سنبين لك الأسباب الكامنة وراء ذلك حتى يمكنك أن تتخلص منها ، لكى تصبح إنسانا سويا سليما يؤمن بالصداقة ويسعى إليها ويحرص عليها .

والصداقة مثلها مثل أى علاقة أخرى ، لها جانبيها الحسن والسيىء ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أنها علاقة إنسانية بين اثنين من البشر لا شك فى اختلافهما فى أمور عديدة ، وفى تباين مصالحهما إلى غير ذلك . كما أنهما يتعرضان لعوامل مختلفة قد تكون بالنسبة لأحدهما سارة نافعة ، وبالنسبة للآخر على خلاف ذلك ، فتنعكس على موقفه من الصداقة . وفيما يلى نعرض آراء الفريقين ، ونبدأ بالفريق المؤيد للصداقة .

المؤيدون للصداقة :

كما سبق أن ذكرنا، فإن الله تعالى قال فى كتابه الكريم : ﴿ **وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [(١)]. والمقصود بالتعارف هنا معنى شاملا يضم كل أشكال العلاقات الاجتماعية، ومن بينها الصداقة، أو بمعنى آخر الأخوة فى الله ، التى كانت أول شىء فعله الرسول ﷺ لما هاجر إلى المدينة حيث آخى بين المسلمين . ولذلك يعبر عليه الصلاة والسلام عن الصداقة بكلمة « أخوة »، فقد روى عنه أنه قال : (إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه حتى يحبه ، فإن القلوب تتجارى) (تتسالم وتتوافق) . وروى أيضا أنه ﷺ قال : (الأرواح جنود مجندة تتلاقى فى الهواء، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف).

وقال معاذ بن جبل : خير الرجال الألوف (الذى يألف الناس) ، وشرهم العزوف (الذى يبتعد عن الناس ، ولا يحب أن يتعرف بهم ويصادقهم) .

وقال أبو حيان التوحيدى : الإنسان لا يمكنه أن يعيش وحده يستوى له

---

(١) سورة الحجرات / ١٣ .



● قال أعرابى : الغريب من لم يكن له حبيب .

أن يأوى إلى المقابر . ولا بد له من أسباب بها يحيا ، وبأعمالها يعيش ، فبالضرورة يلزمه أن يعاشر الناس ، ثم بالضرورة يصير له بهذه المعاشرة بعضهم صديقا، وبعضهم عدوا ، وبعضهم منافقا ، وبعضهم نافعا ، وبعضهم ضارا .

ثم بالضرورة يجب عليه أن يقابل كل واحد منهم بما يكون له من دين أو عقل أو فتوة أو نجدة ، ويستفيد من ذلك كله ما يكون خاصا به ، وعائدا بحسن العقبى عليه ، إما فى العاجل، وإما فى الآجل ، ولعزة الحال (عز الشىء - قل فلا يكاد يوجد ولا يقدر عليه) فى وجدان الصديق (وجود الصديق والظفر به) ، وتعذر السلامة على القريب والبعيد . يريد أن يقول: إن الحصول على أصدقاء أصبح أمرا صعبا . وهو ما يردده كثيرون هذه الأيام .

قال أعرابى : الغريب من لم يكن له حبيب .

وقال الخليل بن أحمد : الرجل بلا صديق كاليمين بلا شمال .

وقال الحسن بن وهب: طرف (جمع طرفة - وهى الملحة) الصداقة أملح من طرف العلاقة، والنفس بالصديق آنس منها بالعشيق. (المعنى أن ما يصدر عمن تربطك به صداقة أجمل وقعا على النفس وأطيب أثرا فيها مما يصدر عمن تربطك به علاقات خالية من الصداقة كعلاقة عمل أو علاقة مكان ، أو ما إلى ذلك) .

وقال أعرابى : أعجز الناس من قصر فى طلب الإخوان ، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم .

قال معاوية : المودة بين السلف ، ميراث بين الخلف (إن المودة بين

الأصدقاء ميراث يتوارثه الأبناء عن الآباء ، فيودون من كان يود آباؤهم ويعادون من كانوا يعادون) .

وقال عبد الملك بن صالح : مشاهدة الإخوان أحسن من إقبال الزمان ، وألذ من نيل الأمان .

وقيل لعبد الله بن أبى بكرة : أى شىء أمتع ؟

قال : ممازحة محب ، ومحادثة صديق ، وأمانى تقطع بها أيامك .

وقال ابن المقفع : لا صديق لثلاثة : للميت ، وللفقير ، وللمحبوس .

أعداء الصداقة :

من الذين عارضوا الصداقة جميل بن مرة الذى عوتب فى اعتزاله الناس ، فقال : لقد صحبت الناس أربعين سنة ، فما رأيتهم غفروا لى ذنبا ولا ستروا لى عيبا ، ولا حفظوا لى غيبا ، ولا أقالوا بى عثرة ، ولا رحموا لى عبرة ، ولا قبلوا منى معذرة ، ولا فكونى من أسرة ، ولا جبروا لى من كسرة ، ولا بذلوا لى نصرة . ورأيت الشغل بهم تضييعا للحياة ، وتباعدا من الله تعالى ، وتجرعا للغيظ مع الساعات ، وتسليطا للهوى فى الهنات بعد الهنات .

وقال الفقيه سفيان الثورى لرجل قال له أوصنى ، قال : أنكر من تعرفه ، قال : زدنى ، قال : لا مزيد .

وكان بن كعب يقول : لا خير فى مخالطة الناس ، ولا فائدة فى القرب منهم والثقة بهم والاعتماد عليهم .

وقيل لروح بن زنباع : ما معنى الصديق ؟ قال : لفظ بلا معنى ، أى هو شىء عزيز كأنه ليس بموجود ، ولو جهل معنى الصديق ، لجهل معنى الصاحب ، ولو جهل معنى الصاحب ، لجهل معنى الخليل ، وعلى هذا :

الحبيب ، والرفيق ، والأليف ، والوديد ، والمؤاخى ، والمساعد . . هذه كلها من نوع واحد ، وإنما تختلف بالمرتبة فى الأخص ، والأعم والألطف ، والأكنف ، وبالأقرب والأبعد ، والأخلص والأريب .

قال الشعبى : تعايش الناس بالدين زمانا حتى ذهب الدين ، ثم تعايشوا بالمروءة حتى ذهبت المروءة ، ثم تعايشوا بالحياء حتى ذهب الحياء ، ثم تعايشوا بالرغبة والرهبة ، وسيتعايشون بالجهالة زمانا طويلا (الجهالة ضد العلم والمعرفة) .

وقيل لميسور بن مخرمة الزهرى : أى الندماء أحب إليك ؟ قال : لم أجد نديما كالحائط ، إن بصقت فى وجهه لم يغضب علىّ ، وإن أسررت إليه شيئا لم يفشه عنى .

وكان بعض السلف يقول فى دعائه : اللهم احفظنى من أصدقائى ، فسئل عن ذلك فقال : إنى أحفظ نفسى من أعدائى .

قال ابن أبى كانون : إذا أردت الحق علمت أن الصداقة و الألفة والأخوة والمودة والرعاية والمحافظة قد نبذت نبذا ، ورفضت رفضا ، ووطئت بالأقدام ولويت دونها الشفاه (أعرضت عنها الشفاه وسكتت عن ذكرها والاهتمام بشأنها) ، وصرفت عنها الرغبات .

ومما قاله أعداء الصداقة عنها يتبين أن هذا العداء ناشئ عن أنهم خاضوا تجارب فاشلة مع من اعتبروهم أصدقاء ، بينما الحقيقة أنهم لم يكونوا كذلك . وعموما ، فإن العيب ليس فى الصداقة ، لكن العيب هو إما فى الصديق الذى يشكو مما أصابه من الأصدقاء كأن يكون عصبيا سريع الغضب سهل الاستثارة ، أو أن يكون طماعا جشعا يريد صديقا يحصل منه على شىء ، مثل الرجل الذى قال لابن عطاء : أنا فى طلب صديق منذ

ثلاثين سنة فلا أجده، فقال له : لعلك فى طلب صديق تأخذ منه شيئا ، ولو طلبت صديقا تعطيه شيئا لوجدت . أو أن يكون بخيلا مقترا ، أو مثاليا أكثر مما يجب فيهجره الأصدقاء أو يسيئون إليه بشكل أو بآخر ، أو أن يكون ممن لا يحسن اختيار من يتخذهم أصدقاء ، أو أن يكون قد قصر فى القيام بواجبات الصداقة ، أو غير ذلك من الأسباب التى يوجد بعضها فى الرجل الذى يشكو من الصداقة ويناصبها العداء، ويوجد البعض الآخر فيمن يشكو منهم ممن كان يعتقد أنهم أصدقاء فتبين له أنه كان مخطئا . وسنبدأ ببيان الأسباب التى توجد لدى طالب الصداقة . ولكى ينجح مسعى الراغب فى الصداقة ، فإن هناك شروطا يجب استيفاؤها ، منها ما هو خاص به ، ومنها ما هو خاص بالطرف الآخر وهو الشخص الذى يرغب فى أن يقيم معه صداقة . ونبدأ بالشروط الخاصة بالساعى إلى الصداقة . أما الشروط اللازم توافرها فى الطرف الآخر فسنتناولها فى الفصل التالى .

الشروط التى يجب توافرها فى الساعى إلى الصداقة :

أولا ـ الذكاء :

اتخاذ الأصدقاء باعتباره سلوكا ، يتكون من عناصر عقلية وأخرى معنوية، أى أخلاقية . لذلك وجب أن يتوفر للشخص من الذكاء ما يمكنه من فهم ما لهذا السلوك من ضرورة ، كما يجب أن يكون لديه من قوة الشخصية ما يمكنه من حمل نفسه على اتباع القواعد التى تستند إليها عملية الفهم هذه .

وعلى ذلك تكون القدرة على اتخاذ الأصدقاء ميزة عظيمة لا تتوفر إلا للأذكياء وأصحاب الإرادة القوية . فهل معنى هذا أن المجتمع الذى يتميز سكانه بارتفاع معدلات الذكاء فيهم تكون فيه الصداقة أكثر انتشارا مما فى

غيره من المجتمعات التى تنخفض فيها معدلات الذكاء ؟ بالقطع لا . . ذلك لأن الصداقة تحتاج فى قيامها واستمرارها إلى عناصر أخرى غير الذكاء ، وهو ما سنلقى الضوء عليه بعد أن نتكلم فى باقى الشروط .

ثانيا ـ أن يكون الشخص اجتماعيا :

وهنا يجب التفرقة بين ما إذا كان اجتماعيا بالطبع ، أم بالتنشئة والتربية ، ذلك أنه إذا كان اجتماعيا بالطبع ، فإن دور التنشئة والتربية يقف عند حدود توجيه ذلك الطبع التوجيه الصحيح بحيث يصبح الشخص منسجما متوائما مع مجتمعه . أما إذا كانت اجتماعيه الشخص مكتسبة بالتنشئة والتربية ، فإن هذه وتلك تكون مسئولة عن المستوى الذى بلغه فى قدرته على اتخاذ الأصدقاء علما بأن هذا المستوى لا يقف عند حد معين ، بل يزيد وينمو باستمرار بسبب التفاعل بين الشخص والواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه . فطالما كان هناك تفاعل ، فإن الشخص يمكنه أن يتخذ من الأصدقاء ما يشاء . والمقصود بالتفاعل هنا الخبرة التى يكتسبها الإنسان كل يوم ، بل وفى كل لحظة من حياته . غير أن ذلك مشروط بالآتى :

أ ـ أن يكون الشخص فى مرحلة عمرية تمكنه من القيام بذلك التفاعل المستند إلى الخبرة ، كأن يكون طفلا مميزا على الأقل وليس دون ذلك ، لأنه لا يكون مهيأ للتعاون مع الآخرين . كما لا يصح إجباره على القيام بذلك و إلا أصيب بضرر نفسى ، وقد يأخذ به العناد كل مأخذ ويفقد القدرة على التعاون فى مستقبل أيامه ، حتى عندما يكون مستعدا بالطبع للتعاون مع غيره من الأشخاص[١]. فكثيرا ما نرى أمهات يحاولن بشتى الوسائل دفع أبنائهن الصغار إلى إقامة صداقة مع أطفال آخرين ، سواء أثناء زيارة هؤلاء

(١) يوسف ميخائيل أسعد ، الشخصية المتكاملة ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٩٣، ص ٢٣

الأمهات لصديقات أو قريبات لهن لديهن أطفالا صغارا ، أو عند وجودهن فى النادى أو فى المصيف ، وذلك عندما يلاحظن نفور أولادهن من هؤلاء الأطفال وانعدام الرغبة لديهم فى التعامل معهم ، فيتصورن أنهم ليسوا أسوياء من الناحية النفسية ، وأن عليهن أن يبادرن إلى التدخل لتعويدهم على اتخاذ الأصدقاء دون أن يأخذن بعين الاعتبار ما قد يكون هناك من أسباب أو عوامل أثرت فى أولادهن فجعلتهم يتخذون هذا الموقف من الأطفال الآخرين . من ذلك ـ مثلا ـ أن يكون الطفل الآخر قد بادر ابنها بالعداء خلسة ، كأن يضربه أو يستولى على ما معه من حلوى أو لعب ، أو أن يكون أنانيا رفض أن يعطيه جزءا مما معه من حلوى أو طعام ، أو أن يريه اللعبة التى معه مما كان سببا فى نفور الابن منه . وبالتالى ، فإن قيام صداقة بينهما يحتاج إلى إجراءات وتدابير تخلو من القهر أو مجرد الضغط حتى لو كان فى صورة الإغراء بمنفعة تعود عليه .

ب ـ أن يكون الشخص متمتعا بحالة نفسية طيبة واثقا بنفسه ولديه استعداد لتقبل الموقف والرضا عنه . أما إذا كان حاله غير ذلك ، فإنه يكون من الصعب عليه اتخاذ الصديق أو الأصدقاء ، كأن تكون الجماعة التى قامت بينه وبينها علاقة قد أظهرت نحوه اللامبالاة أو عدم التقدير . وعندئذٍ يدفعه سوء الظن بهم إلى النظر إلى تصرفهم على أن الباعث عليه هو كراهيتهم له أو احتقارهم لشأنه أو غير ذلك ، مما قد يؤدى به إلى أن يعتدى عليهم بالقول أو بالفعل بدلا من أن يحاول إصلاح ما بنفسه . وهكذا فبدلا من أن يفوز بصداقة يكسب عداوة !

ج ـ أن يكون فى حالة صحية جيدة ، لأن إصابته بالمرض قد تشعره بالتعب أو الإجهاد أو الألم ، مما ينعكس على سلوكه وردود أفعاله إزاء أشخاص يصلحون لأن يتخذ منهم أصدقاء ، فتكون النتيجة أن ينفروا منه

أو على الأقل لا يجدون فى أنفسهم رغبة فى الارتباط معه برابطة صداقة . وهذا قد يكون عند بداية قيام الصداقة حيث يفتقر الأصدقاء الجدد إلى المعلومات الكافية والوافية عن الصديق الجديد ، ومن بينها أنه مريض ، فيظنون أنه إذا تغيب عنهم بسبب المرض ، أنه غير راغب فى صداقتهم ، أو أنه يستعلى عليهم ، أو غير ذلك فينفرون منه . أما إذا أصيب بالمرض أثناء قيام الصداقة بينه وبينهم لم يكن هناك مجال لسوء الظن به ووجب عليهم أن يبذلوا له المزيد من الحب والاهتمام وأن يحيطوه بالرعاية والعناية ، لا أن ينفضوا من حوله ويتخلوا عنه ، وإلا كانوا جاحدين منافقين وصوليين وغير جديرين بالاحترام أو الثقة فيهم والاعتزاز بهم .

د- أن لا يكون الشخص مصابا بمرض نفسى ، مثل : الاكتئاب أو الخوف المرضى أو الوساوس أو الأفعال القهرية أو الأفكار الثابتة ، مما ينعكس على تصرفاته حيال الآخرين ، ويحد بدرجة كبيرة من قدرته على اتخاذ الأصدقاء .

وفضلا عما تقدم ، فإن نجاح الشخص ، سواء فى اتخاذ الأصدقاء أو فى الاحتفاظ بهم ، يتطلب أن يكون بعيدا عن التكلف أو التظاهر والمحاكاة لغيره، بل يكون تلقائيا فى سلوكه معبرا عن ذاته صادقا مع نفسه ومع الآخرين، الذين لن يكون من الصعب عليهم إدراك ما إذا كان متكلفا أم تلقائيا ، وبالتالى يحرصون على صداقته أو يزهدون فيها .

كذلك أن يكون سلوكه متسما بالاتساق والانسجام بعضه مع بعض ، سواء فى دخيلة نفسه أو فى ظاهره وما يبدو منه للناس ، ولا يكون متناقضا ، وإلا عده الناس مرائيا غير جدير بالصداقة وبالاحترام . وأخيرا أن يكون قادرا على استيعاب خبراته وتجاربه، وكذلك الاستفادة منها فى تنمية شخصيته والمضى بها نحو التكامل .

ولكن، كم من الناس يملكون هذه القدرة ؟ إنهم فى الحقيقة قليلون ، بل أقل من القليل ، وهو ما يفسر القدرة الفائقة التى لدى البعض على اتخاذ الأصدقاء بسهولة وبأعداد كبيرة ، وعجز الغالبية عن اتخاذ الأصدقاء أو الحفاظ على ما أقاموه منها ، وهو ما يعزوه البعض لا إلى افتقارهم إلى المقدرة أو الموهبة فقط ، بل إلى غلبة المادة على القيم والمثل العليا واجتياحها لها بسبب محاكاة الشعوب للحضارة الغربية ، مما جعل مفكرا غربيا أمينا وموضوعيا هو الكسيس كارل يقول : « إن أية دراسة لبعض الأمم ، مهما كانت هذه الدراسة سطحية ناقصة ، ترينا الفشل فى الحياة الفردية والاجتماعية . وعلامات هذا الفشل واضحة كل الوضوح كانتشار السكر ، وتفكك الأسرة ، وكثرة النساء المهجورات من أزواجهن أو المطلقات ، والأطفال الذين تنقصهم التربية أو سلامة التكوين الجسمانى ، وقلة الذرية، والحسد ، والانقسام العميق فى قلب كل مجموعة اجتماعية ، والفرقة والعجز عن المساهمة فى عمل مشترك ، سواء أكان العمل يتعلق بالأسرة أم بالمصنع أم بالمكتب أم بالقرية ، وكذلك بالجامعة والمستشفى والأعمال الخيرية »(١) .

ولقد تم هذا التغير بسرعة أفقدت الكثيرين توازنهم فواجهوا عجزهم عن اتخاذ الأصدقاء أو فشلهم فى الحفاظ عليهم بالانسحاب من الميدان ، وإعلان عدم إيمانهم بوجود صداقة . والملاحظ أن نسبة كبيرة من الشباب يفتقرون إلى القدرة على اتخاذ الأصدقاء ، وتنقصهم الموهبة اللازمة لاكتسابهم. كما أنهم يعيبهم المحاكاة السريعة والكاملة لآخرين غالبا ما

(١) انظر : الكسيس كارل ، تأملات فى سلوك الإنسان . . الحضارة الحديثة فى الميزان ، ترجمة دكتور محمد القصاص ، مكتبة مصر بالفجالة ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص١٩١ .

يكونون غير أسوياء أو ـ على الأقل ـ سطحيين وتافهين ، ولكن يتميزون بالمرح وخفة الدم وحضور البديهة ، وإن كان فيما لا يفيد .

ظاهرة الغلس والقفل :

ونعنى بها الأوصاف التى يطلقها الشباب على نظرائهم، فيقولون عن الواحد منهم: غلس أو قفل أو دهل أو غير ذلك، حتى ولو لم يكن لهم بهم سابق معرفة، وإنما هى أحكام مسبقة يصدرونها على أنماط من الناس أو الشباب لا تستند إلى أى قاعدة علمية فى التصنيف أو التنميط، وإنما هى المحاكاة لنفر قليل من الشباب السطحى اللامبالى والمستخف بالأخلاق، الساخر من القيم والمثل العليا . أما الذين يحاكونهم من الشباب، فإنما يفعلون ذلك بسبب يرجع إلى ضعف الشخصية والعجز عن الإبداع، وربما تدنى مستوى الذكاء. وهو سلوك غير سوى يؤدى فى الغالب إلى عدم قيام صداقة بينهم وبين الآخرين. ومن الأنماط الشائعة لدى الشباب نمط « الغلس » ، ونمط « السمج » ، وأنماط أخرى عديدة كثيرا ما نسمع الشباب ذكورا وإناثا يرددونها ، إلى الحد الذى جعلنا نتصور أنه يندر أن يكون هناك شاب ليس غلسا أو سمجا !

وسواء كانت هذه الأحكام مسبقة ، أى صدرت من صاحبها قبل أن يحاول معرفة الآخر وفهمه ، أو لم تكن مسبقة ، وإنما صدرت منه بعد أن فعل ذلك، لكنه لم يجد استجابة لمحاولته ، فإنه يتعين على الفرد فى علاقاته بالآخرين أن يتعلم كيف يلاحظ أحسن مستوى لسلوكه الخاص فى علاقته بسلوك الآخرين ، ويحاول أن يحسن هذا السلوك حتى يستطيع أن يتوافق ويتكيف بمعدلات أفضل مع المجتمع الذى يعيش فيه ويتعامل مع أفراده.

كذلك ينبغى أن يكون الفرد صادقا مع نفسه ، فإن إمكانيات عدم التكيف وسوء الفهم والتفاهم هى التى تؤدى إلى اختفاء عنصر التعاون



• الاستعانة بالآباء والأقارب عند إختيار الأصدقاء ليس فيه ما يتعارض مع كونهم مستقلين ولهم شخصية حرة ومتميزة.

الذى لا يقتصر على انخفاض معدلات الصداقة وحسب ، بل ويؤدى إلى التأثير فى مستوى الجهد الجماعى ، مما يؤدى إلى انخفاض معدلات الإنتاج .

إلى غير ذلك من الأسباب والعوامل التى جعلت ظواهر ، مثل : التوافق وعدم التوافق ، والتكيف وسوء التكيف ، والقبول وعدمه ، والرضا والتبرم ، والجاذبية والنفرة ، والتفاهم وسوء التفاهم . . من الظواهر الملحوظة على أوسع نطاق فى العلاقات بين الأشخاص بعامة ، وفى علاقة الصداقة بخاصة [(١)] .

استعانة الصغار بخبرة وعلم الكبار عند اتخاذ الأصدقاء :

إذا كانت الصداقة مهمة جدا وضرورية للفرد ، وبخاصة فى مرحلة الشباب التى هى فى الواقع البداية الحقيقية للصداقة ، ونعنى بها هذه العلاقة الواعية البناءة والهادفة والتى تختلف كثيرا عما يمكن أن نسميه صداقة تجاوزا ، وهى العلاقة التى تكون بين الأطفال فيما قبل البلوغ والتى لا تخلو من سذاجة وضعف وعى بكنهها وأهدافها ووسائلها . . فإن هذه الصداقة قد تنطوى على أخطار وتؤدى إلى أضرار إذا أساء الفرد اختيار أصدقائه . لذلك ، فإنه من الأهمية بمكان أن يلجأ إلى أبيه وأمه ومن يكبرونه فى السن ويزيدون عنه فى العلم والخبرة ليستعين بهم فى اختياره ، حتى لا يعرض نفسه للأخطار أو الأضرار التى لا بد أن تنشأ عن سوء اختياره . وأقول للشباب بكل الصراحة والصدق : إن تصرفهم على هذا النحو ، وأعنى به الاستعانة بالآباء والأقارب عند اختيار الأصدقاء ليس فيه ما يتعارض مع كونهم مستقلين ذوى شخصية حرة متميزة ، بل هو على العكس إنما يدل على قوة شخصيتهم وثقتهم فى أنفسهم وحريتهم

(١) مصطفى الخشاب ، معجم العلوم الاجتماعية ، ص٤٠٤ .

واستقلالهم ، ثم إن ما سيصدر عن الآباء من آراء بشأن الصديق أو الأصدقاء لن يكون ملزما ، بل سيكون لهم أن يأخذوا به أو أن يرفضوه ويتحملوا وحدهم العواقب .

وتلعب الأسرة دورا مهما فى إعداد الفرد لأن يكون صديقا ناجحا أو لا يكون، وذلك من خلال عملية التنشئة الاجتماعية. لذلك ينبغى أن يتدرب الأفراد على كيفية الاندماج فى الأوساط الاجتماعية. وكيف يحسنون استجاباتهم فى مواقف متعددة لكى تكون فاعلة أكثر نحو شخص معين، وفى موقف معين، وبطريقة تقدم مشاركة متجانسة وإيجابية . كما ينبغى أن يتدرب على كيفية التحكم فى الضوابط الاجتماعية التى تؤثر فى علاقاتنا أو تحد من انطلاقاتها ، وكيف يمكن القضاء على نذر المقاومة أو الاتجاهات السلبية التى تبدو من البعض فى غمرة التفاعلات الاجتماعية التى طالما تنشأ فى قلب كل جماعة أيا كان نطاقها من احتكاك الفكر بالفكر والعمل والمشاعر ، لأن الملاحظ أنه كلما توافر الإحساس المتكامل بالانتماء للجماعة نمت العلاقات فى جو من الصفاء والتواصل الاجتماعى . وكلما كانت درجة التعاون التلقائى أعلى، كان الأفراد أكثر كفاءة وأكثر تفاهما وأقوى ارتباطا بأهداف عملهم .

وتلعب الأم دورا يفوق الدور الذى يلعبه الأب فى تنشئة الأبناء على الميل إلى الصداقة والاستعداد لاتخاذ الأصدقاء ، وذلك لسبب بسيط هو أن الأب يقضى وقتا طويلا خارج البيت بعيدا عن الأبناء الذين يكونون مع الأم ، سواء فى البيت أو خارجه فى زيارتها للأهل أو للصديقات واصطحابها لهم معها ، فإذا كان مع الزائرات ـ أو لدى الأقارب ـ أبناء فى سن أبنائها أو قريبا من هذا السن ، فإنها يمكن أن تلاحظ بسهولة ما إذا كان أولادها يقبلون على هؤلاء الأولاد فيلعبون معهم ويتوددون إليهم أم لا . فإذا كان العكس ، فإن

عليها أن تبادر إلى التدخل من أجل أن تتعرف على ما قد يكون هناك من أسباب وراء عزوف أبنائها عن التعامل مع الأولاد الآخرين . وليس بشرط أن يكون السبب وجود ميول انعزالية أو عدوانية لدى أبنائها ، ولكن غالبا ما تكون هناك أسباب أخرى ، ومن ثم يجب التعرف عليها ومواجهتها بالأسلوب المناسب .

ومن العيوب التى تحول دون نجاح الشخص فى اتخاذ أصدقاء أو تقف حجر عثرة دون استمرار الصداقة أطول وقت ممكن ، الجهل بواجبات الصداقة أو تعمد عدم القيام بها . وفيما يلى نبين هذه الواجبات لكى يلم بها الراغبون فى الدخول فى صداقات ، وأيضا من كانوا أصدقاء جدد ، ويهمهم أن تستمر صداقاتهم وتدوم .

ما يجب على الصديق نحو صديقه :

تباينت الآراء فى شأن ما يجب على الصديق نحو صديقه ما بين آراء توسّع من هذه الواجبات ، وأخرى تضيّق منها ، وثالثة لا توسّع ولا تضيّق ، فهى وسط بين الاثنين ، وذلك على النحو التالى :

أولا ـ الآراء الموسعة :

يأتى فى مقدمة الموسعين فى الواجبات التى على الصديق نحو صديقه أبو حامد الغزالى، والذى قال : إن للصديق من الحقوق على صديقه سبعة عشر حقا ، وهى : (١) أن يؤثره بماله . (٢) أن يبادر إلى تقديم العون له . (٣) أن يكتم سره . (٤) أن يستر عيوبه . (٥) أن لا يبلغه ما قد يسمعه من ذم الناس له . (٦) إبلاغه ما يسره من ثناء الناس عليه . (٧) أن يحسن الإصغاء إليه إذا تكلم . (٨) أن يدعوه بأحب أسمائه إليه . (٩) أن يثنى عليه بما يعرفه من محاسنه . (١٠) أن يشكره على صنيعه فى وجهه . (١١) الدفاع عنه

فى غيبته . (١٢) نصحه باللطف . (١٣) العفو عن زلته . (١٤) إحسان الوفاء مع أهله . (١٥) التخفيف عنه فى المكاره . (١٦) إظهار السرور لرؤيته . (١٧) السلام عليه عند لقائه .

من الموسعين أيضا أبو حيان التوحيدى ، فإنه يرى أن للصديق على صديقه عشرة واجبات هى الآتية :

(١) أن من حق الصديق على صديقه القيام بأعبائه فى غيابه . (٢) حفظه ومعاونته عند حضوره . (٣) ملاطفته إذا جفا . (٤) مكافأته إذا وفق فى عمل . (٥) الحديث عنه الحديث الطيب مع الأصدقاء الآخرين . (٦) دفع الظلم عنه . (٧) الابتهاج لرؤيته . (٨) الحفاظ على سره . (٩) عدم تصديق ما يقال عنه . (١٠) معاتبته إذا وقع خلاف معه بدلا من قطع الصلة به نهائيا .

ثانيا ـ الآراء المضيقة :

من أصحاب هذه الآراء عبد الله بن جعفر الذى قال : إن الواجبات التى على الصديق نحو صديقه ثلاثة ، هى : (١) أن يعاشر أهل الرأى والفضيلة . (٢) مداراة الناس بالمخالفة الجميلة ، بمعنى أن يكون حسن الخلق فى معاشرته لهم . (٣) أن يقتصد فى الإنفاق ، ولكن بدون بخل . وأضاف قائلا : فذو الثلاث سابق ، وذو الاثنين زاهق (متقدم) ، وذو الواحدة لاحق ، فمن لم تكن فيه واحدة من الثلاث لم يسلم له صديق ، ولم يتحنن عليه شفيق ، ولم يتمتع به رفيق .

ومنهم أيضا الأحنف الذى يرى أن الواجب على الصديق : (١) أن يعفو عن صديقه إن هو ظلمه . (٢) أو تدلل عليه . (٣) أو أخطأ فى حقه .

وفى رأيه أيضا أن الواجب على الصديق : (١) أنه إذا استغنى عنه صديقه لم يزده فى المودة . (٢) وإذا احتاج إليه لم ينقصه منها . ففى الحالتين يكون خير الأصدقاء .

وهناك أيضا ذلك الأعرابى الذى سئل عن الواجبات التى تقع على عاتق الصديق ، والتى إذا قام بها نحو صديقه كان من أكرم الناس عِشرة ؟ فقال : (١) من إن قرب منح . (٢) وإن بعُد مدح . (٣) وإن ظلم صفح . (٤) وإن ضويق سامح . فمن ظفر بهذا الصديق فقد أفلح ونجح .

ولكن، على بن عبيدة نزل بالواجبات ، التى يرى أن يلتزم بها الصديق نحو صديقه ، إلى أدنى حد فجعلها واجبا واحدا فقط ، هو : الحياء . فقال : إنه يجب على الصديق أن يكون عنده حياء فى تعامله مع صديقه ، وإلا كان على صديقه أن يتركه لأنه لا دواء لمن لا حياء له ، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاء له ، ولا إخاء لمن يريد أن يجمع هوى أخلائه له حتى يحبوا ما أحب ، ويكرهوا ما كره ،وحتى لا يرى منهم زللا ولا خللا .

وقال البنوى : إنه مما يجب على الصديق نحو صديقه : (١) أنه إذا تعثر أقاله من عثرته . (٢) وإذا انحرف أو أفسد قوّمه أى أصلحه . (٣) وإذا ضل سواء السبيل يهديه . (٤) وإذا أصابه الملل صبر عليه . (٥) وأن يكفيه ما لا يعلم وما علم .

ثالثا ـ الآراء الوسط :

هى الآراء التى لا هى موسعة ولا هى مضيقة بخصوص الواجبات التى على الصديق نحو صديقه . وممن اتبعوا هذا النهج ضياء الدين السهروردى الذى يرى أنه مما يجب للصديق على صديقه ستة واجبات فقط وليس سبعة عشر، كما قال الغزالى ، وهى الواجبات التالية :

(١) أن يحفظ حرماته . (٢) أن يحسن معاشرته . (٣) أن لا يضن عليه بالنصيحة . (٤) أن يؤثره بماله . (٥) أن يبذل له العون فى الدنيا والدين . (٦) أن يصبر على ما قد يصدر عنه من أفعال تنطوى على إيذاء له . وذلك عملا بحديث رسول الله ﷺ : (المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم ، وفى كل الخير) .

قد يقول قائل ، بعد قراءة ما تقدم بشأن الواجبات التى على طالب الصداقة الالتزام بها وأداؤها لمن يرتبط معهم بالصداقة : يالله ! وما شأنى أنا بكل هذا؟! ثم ما الذى سيعود علىّ من الصداقة ؟ . أما عن شأنه بكل هذا، ونعنى به واجباته نحو من سيصادقه ، فأنا أقول له : إن الصداقة علاقة بينك وبين شخص آخر، وكما تتحمل أنت بواجبات نحوه، فهو أيضا عليه نفس الواجبات. وبالتالى ، فإنك إن وفيت بما عليك فسيوفى هو أيضا ما عليه . . وهكذا .

فوائد الصداقة :

أما بخصوص التساؤل عما سيعود عليك من الصداقة بعد كل هذا العبء المتمثل فيما يسمى واجبات الصداقة ، فالرد هو أنك ستحصل على فوائد عديدة وليس فائدة واحدة ، وها هو ابن المقفع يقول فى فائدة الصداقة والأصدقاء : اعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا ، هم زينة فى الرخاء ، وعدة فى الشدة ، ومعونة فى المعاش والمعاد ، فلا تفرطن فى اكتسابهم وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم [١] .

وهذا يونس النحوى ينصح ويحذر ، فيقول : لا تعادين أحدا ولإن ظننت أنه لا يضرك ، ولا تزهدن فى صداقة أحد ولإن ظننت أنه لا ينفعك ،

(١) الأدب الكبير ، باب فى معاملة الصديق .

فإنك لا تدرى متى تخاف عدوك ، وترجو صديقك ، ولا يعتذر أحد إليك إلا وقبلت عذره ، وإن علمت أنه كاذب .

كذلك ، فإن الصداقة فيها فوائد أخرى بالغة الأهمية بعضها نفسى والآخر اجتماعى .

وحديثا ، فإن الغالبية العظمى من البحوث النفسية تتفق على وجود صلة وثيقة بين التفاعل مع الأصدقاء والتوافق النفسى والاجتماعى فى كل مراحل الحياة بصفة عامة ، وفى مرحلتى الطفولة والمراهقة بصفة خاصة . وهو ما سنوضحه فيما يلى :

أولا ـ الفوائد الاجتماعية :

إن للصداقة فوائد اجتماعية عديدة يأتى على رأسها الدور الذى تقوم به فى عمليات التنشئة الاجتماعية ، وذلك من ناحية ما تعين الفرد على اكتسابه من مهارات وقدرات وسمات شخصية مرغوب فيها اجتماعيا ، وبالذات فى مرحلة الطفولة ، حيث تسهم بقوة فى ارتقاء المهارات الاجتماعية التى تتطلب توافر القدرة على التخاطب الناجح مع الأطفال الآخرين ، وأيضا فى ارتقاء القيم الأخلاقية والأدوار الاجتماعية لديهم ، فضلا عن أنها تمدهم بإدراك واقعى لذواتهم بالمقارنة بالأطفال الآخرين . كذلك ، فإن الصداقة تبصرهم بمعايير السلوك الاجتماعى الذى يتلاءم مع المواقف المختلفة ، وهو ما يتطلب أن يكون الطفل قادرا على أن يتخيل نفسه كما يراه أقرانه فى موقف التفاعل . وكلها كما نلاحظ أمور بالغة الأهمية فى عملية التنشئة الاجتماعية يتعذر على الأسرة القيام بها لا لشىء ، إلا لأنها بحكم دورها تكون عاجزة عن أن توفر للأطفال الفرص اللازمة لتعلم المهارات ، وهذا لا يرجع إلى عيب فيها ، وإنما يرجع إلى طبيعة دورها وعلاقتها بالطفل . .

فالوالدان بحكم ما اكتسباه من خبرة بالطفل يدركان حاجاته ويعرفان مطالبه ، وبالتالى فإنهما يقومان بتلبيتها حتى قبل أن يعبر عنها لفظيا فكأنهما يحولان دون حدوث التفاعل المطلوب، وذلك بخلاف موقف الطفل فى علاقته بالأطفال الآخرين ، فإنه يجد نفسه مضطرا إلى التعبير عن رغباته وحاجاته بصورة يفهمها أقرانه ، وإلا فإنه سيعانى من شعور قوى بالحرمان .

كذلك، فإنه فى علاقته بهؤلاء الأقران يكون فى حالة مساواة معهم تتيح له أن يتفاعل كيف يشاء ، فكلهم عيال كما يقولون. وذلك بخلاف علاقته بأبويه ، فإنه يكون أدنى منهما ، وبالتالى يتقيد فى تفاعله بكونه صغيرا وأنه ابنهما ، وهو ما قيل: إن جماعات الأطفال تحرر أعضاءها وتخلصهم من سلطة الآباء وتدخلهم فى علاقات تقوم على التعاون فيما بينهم والتقدير المتبادل والتلقائية أو ما يسمى الندية. وهو ما يسمح للطفل بالتحرر مما يفرضه عليه الأبوين، ويتيح له أن يتعلم كيف ينظر فى الآراء فيقبلها أو يرفضها بحسب ما يتراءى له، وذلك على أساس الاتساق الداخلى أو الضبط المتبادل .

وقد تبين من البحوث التى أجريت على عينات من الأطفال ، أنهم يشعرون بقدر من السعادة والمتعة من علاقاتهم بأقرانهم يزيد كثيرا على ما يشعرون به من علاقاتهم بإخوتهم وأخواتهم .

أما بالنسبة لمن هم فى مرحلة المراهقة ، فإن للصداقة وظائف أخرى تقوم بها، من بينها أن يتعلموا كيفية أن يشاركوا أصدقاءهم فى الاهتمامات ، والكشف عن المشاعر والأفكار ، وتكوين علاقات تتميز بالثقة المتبادلة معهم.

ويخطئ من يعتقد أن الصداقة تضعف علاقة الأخوة داخل الأسرة ، لأنها تفقد الأبناء ـ أو على الأقل تضعف ـ اهتمامهم ببعضهم البعض وتقصره على أصدقائهم . والصحيح هو أن الصداقة تحدث آثارا خلاف ذلك ، حيث يمكن لها أن تمنح علاقات الأخوة حيوية ودفئا بما توفره لهم من خبرات ومهارات يمكنهم أن يستخدموها فيما بينهم ، فضلا عن أن هذه الصداقات تكون محورا لأحاديث الأخوة فتبدد مللهم وتجدد أفكارهم .

ولما أن كانت التنشئة الاجتماعية تشتمل على عمليتى التعليم والتعلم ، فإن هذه الأخيرة وسيلتها أو أداتها هى القدوة ، التى يقصد بها أن الخاضع للتنشئة يشاهد شخصا ما يسمى القدوة أو النموذج تصدر عنه استجابات تُعجب هذا الذى يشاهدها فيجد فى نفسه ميلا إلى أن يحاكيها . وكثيرا ما يكون الأصدقاء نماذج اجتماعية يتعلم منها الطفل والمراهق الكثير من الخبرات والمهارات وأشكال السلوك الإيجابى بما فيها مواجهة الضغوط الاجتماعية والتعامل الكفء مع الإناث ، فضلا عن القيم الأخلاقية . من ذلك ـ مثلا ـ أنه إذا قام القدوة بالتصدى لشخص شرع فى التحرش بأنثى وقام بحمايتها ، فإنه إذا وقعت عينا الطفل أو المراهق على هذا المشهد ، ثم لاحظ ما تلقاه القدوة من مساندة اجتماعية ، فإنه سيتخذه قدوة له يحاكيه إذا صادف نفس الموقف أو موقفا قريبا منه . غير أنه يشترط لكى يحدث سلوك القدوة أثره فيمن شاهده أن تكون بينهما جاذبية متبادلة يشعر بها كل منهما نحو الآخر ، وأن يكونا متماثلين فى الجنس والمستوى الاجتماعى والاقتصادى . أما السن فلا ، لأنه كثيرا ما يتأثر الصغير بالكبير طالما أنه يشعر بجاذبية نحوه أو حتى الإعجاب به ، بالإضافة إلى ما يلاحظه من دعم اجتماعى تقدمه له الجماعة التى ينتمى إليها .

وفضلا عما تقدم ، فإن للصداقة فوائد اجتماعية أخرى ، هى :

١ ـ المساندة الاجتماعية : ويقصد بها ما يقدمه الصديق لصديقه من مساعدات مادية ، مثل : الإقراض إذا مر بضائقة مالية وتقديم الهدايا له فى المناسبات المختلفة ، ومساعدات معنوية أو أدبية ، مثل : إزجاء النصح له، وإظهار التعاطف معه ، ودعم ثقته بنفسه . ونسوق للقارئ هذه الحكاية التى كان بطلها المغيرة بن شعبة ، فقد تقدم إليه خصمان ، فقال أحدهما : إن هذا يدل على معرفة بك . قال المغيرة : صدق ، وإنها لتنفعه. قال الرجل : كيف ؟ أتضلع على فى الحكم (أتميل فى الحكم وتجور؟) . قال المغيرة: لا ، ولكن انظر ، لئن توجه الحق له أخذته منك بعنف ، وإن توجه الحق لك عليه ، قضيت عنه إليك ، إن المعرفة لتنفع عند الكلب العقور ، فكيف عند الرجل الحر ؟

٢ ـ تقوية العلاقات الاجتماعية فيما بين الأفراد : حيث إنه إذا كاشف أحدهما الآخر بما فى سريرته ، فإن ذلك يجعل هذا الشخص يشعر بأن صديقه يثق فيه . وبالتالى ، فإنه يكاشفه بدوره عما فى نفسه فتزداد معرفتهما ببعضهما البعض وتتوطد العلاقة بينهما وتشتد ثقتهما فى بعضهما البعض وإحساس كل منهما بالآخر ، بحيث إنه إذا واجه أحدهما ظروفا سيئة وجد الآخر إلى جانبه يساعده ويشد من أزره .

٣ ـ الضبط الاجتماعى : فحيث يقوم التشابه بين اتجاهات الأصدقاء وقيمهم وأفكارهم ، فإن الصديقين من أجل أن تستمر صداقتهما ، يحرصان على أن يحترم كل منهما ما لدى الآخر من هذه الأمور . أما إذا حدث أن صدر من أحدهما ما يعتبر ماسا بما لدى الآخر من قيم أو مبادئ ، فهنا يظهر دور الصداقة باعتبارها أداة من أدوات الضبط الاجتماعى ، فيقوم من



● وأول ما تفعله الصداقة فى الشخص هو أنها تخفض ما لديه من شعور بالوحدة

أصابته الإساءة بمراجعة المسيء وتنبيهه إلى ما حدث ، طالبا منه . . إما أن يقدم تفسيرا له ، وإما أن يدعوه إلى ألا يكرره .

ثانيا ـ الفوائد النفسية :

توفر الصداقة فوائد نفسية كثيرة ، هى فى الحقيقة غير مقطوعة الصلة بالفوائد الاجتماعية للصداقة ، لأنه كما هو معروف ، فإن كل أثر نفسى له أصل أو مصدر اجتماعى ، وأول ما تفعله الصداقة فى الشخص هو أنها تخفض ما لديه من شعور بالوحدة ناشئ ، لا عن عزلته اجتماعيا ، سواء كان قد فرضها على نفسه أم فرضت عليه ، وإنما عن الفرق بين مستوى التفاعل الاجتماعى الحادث فعلا فى وقت ما والمستوى الذى يتطلع إليه ، ذلك لأن ظروف الفرد تختلف فيما توفره له الصداقة من إحساس بالارتياح وجدانيا فى الظروف العادية قد يصبح غير كاف ، إذا ما واجهته ظروف سيئة أو انتابه شعور بالخوف أو القلق .

أما بخصوص الخوف والقلق ، فإن الصداقة توفر فائدة نفسية أخرى للفرد هى التى يسميها علماء النفس « الرغبة فى المقارنة » ، والتى قالوا : إنها تظهر فى أوقات الأزمات أو تحت تأثير الشعور بالوحدة حيث تهتز ثقة الفرد فى قدرته على تحمل الضغوط والظروف المعاكسة ، مما يؤدى إلى حدوث انخفاض فى تقدير الذات وعدم دقة الأحكام الشخصية ، وبالتالى يزداد استعداده للاعتماد على الآخرين ، سواء كان الغرض من ذلك مقارنة ذاته بذواتهم لكى يتحقق من صواب أحكامه ، أو تعديل آرائه ، أو كان من أجل الحصول على المساندة الوجدانية .

كذلك توفر الصداقة فائدة أخرى، هى ما يسمى « الإفصاح عن الذات»، فالناس جميعا لديهم ميل فطرى للحديث مع الآخرين ، سواء

كانت موضوعات الحديث عامة أو كانت خاصة ، وذلك يحقق لهم فوائد عديدة فى مقدمتها : التعبير عما فى النفس ، أو كما يقول العوام : «التفريج» عن النفس ، وهو الذى يهدف به الفرد إلى التخفيف عن نفسه مما تحمله من هموم كما لو كان يحمل على كاهله أثقالا ينوء بها ، فيطلب من آخرين أن يساعدوه فى حمل بعضها . وهو ما لا بد أن كثيرين يلاحظونه هذه الأيام حتى ممن لا تربطهم بهم صداقة أو حتى زمالة أو معرفة .

أما الفائدة الثانية ، فتسمى « التوضيح » ، وبه يرمى الفرد إلى عرض نفسه على صديقه فى صورة جلية . . سهلة الفهم يمكنه أن يتعامل معها .

وأخيرا . . يأتى ما يسمى « بالتصديق الاجتماعى » ، والذى يتحقق عندما يقابل الصديق ما قام به صديقه من عرض نفسه عليه بعرض نفسه هو الآخر عليه ، فيجد الصديق الأول أن ما لدى الثانى من آراء واتجاهات وأفكار يؤيد ما لديه هو نفسه ، وهو ما يعد تصديقا له .

ويترتب على مشاركة الأصدقاء فى الميول والاهتمامات الشخصية ، إثارة المشاعر الإيجابية السارة التى تتضمن المرح والترفيه والتسلية ، والتى تبدو أوضح ما تكون لدى الشباب . وهو ما نلاحظه عندما يكونون مجتمعين ، فإنهم لا يكادون يكفون عن الضحك وكأنهم اجتمعوا لأجل ذلك ، إلا أنه من الواجب التنبيه إلى أنه ، وإن كان المرح يعد قاسما مشتركا تقوم عليه الصداقة فى كل المراحل ، كما أنه يعتبر هو واللعب مصدرين حيويين للتنبيه والاستثارة المعرفية ، فضلا عما للضحك والمداعبات من دور فى تيسير التفاعل المتبادل بين الأصدقاء . . من الواجب التنبيه إلى أنه ينبغى ألا يتفوق على ما يجب على الأصدقاء من المساعدة وغيرها من أنواع السلوك الغيرى الموجه إلى الغير .

هذه هى الفوائد التى توفرها الصداقة ، وهى بحسب ما تم من بحوث ودراسات صحيحة وحقيقية ، بقدر ما إن الآثار السيئة المترتبة على الانعزال وعدم اتخاذ أصدقاء صحيحة وحقيقية . فهل أعاد الذين يناصبون الصداقة العداء النظر فيها لديهم من أفكار غير صحيحة عن الصداقة ، أو أن الذين يعتقدون أن الصداقة بما تفرضه من واجبات على الصديق تمثل عبئا ثقيلا لا داعى له ؟ غيروا هـذا الاعتقاد الذى لا نقول: إنه خاطئ تماما ، ولكن نقول: إنه مبالغ فيه .

ويهمنا أن نطمئنهم إلى أن كثيرا مما اعتبره الفقهاء والعلماء واجبات تقع على عاتق الساعى إلى الصداقة ليست ملزمة فى كل الأحوال ، وإن لصاحب الشأن أن يأخذ بها أو لا يأخذ فى ضوء الظروف والإمكانات ، وهى ليست واحدة فى جميع الأحوال بل تختلف من صداقة إلى أخرى . مثال ذلك : أن تقوم صداقة على الرغبة فى الإفصاح المتبادل عن المشاعر الشخصية ، وتقوم أخرى على الرغبة فى ممارسة الاهتمامات المشتركة . غير أن عمق الصداقة يتوقف على ما يتوفر لها من مقومات ، فكلما تعددت وتنوعت أسس الصداقة زادت العلاقة قوة .



الفصل الخامس

الشروط الواجب توافرها فيمن نتخذه صديقا

سبق أن بينا كيف أن الصداقة تكاد أن تكون هى العلاقة الاجتماعية الوحيدة التى يكون للإنسان فيها مطلق الحرية فى اختيار من يصادقه ، ولعلنا نتذكر قول الشاعر :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا لـــه مـــا مـن صداقتـــه بـــد

ولكن ، هل تتجرد الرغبة فى اتخاذ الصديق من أى دافع ، أم أن هناك دوافع تكمن وراء إحساس الإنسان بالحاجة إلى أن يكون له صديق ؟

لا يجادل أحد فى أن المرء فى سعيه لاختيار صديق يكون مدفوعا بأمر من اثنين . . الأول : الحاجة إلى الصديق لسبب أو لآخر ، لأن الإنسان اجتماعى بطبعه . والأمر الثانى : ما يعتريه من الرغبة فى البذل والعطاء لشخص أو لأشخاص ، وإن لم يكن يعرفهم بذواتهم فإنه يعرفهم بصفاتهم، ويرى أن لديه ما يمكنه أن يفيدهم به . وهذا النوع من الأصدقاء، أى المعطاء ، هو الأرقى والأكثر نبلا وكرما بين الأصدقاء ، بخلاف الذى يسعى إلى الصداقة مدفوعا بالرغبة فى تحقيق النفع والحصول على الفوائد فإنه لا شأن له لا بالرقى ولا بالنبل ، وإنما هو انتهازى أنانى ، سيئ الخلق . وربما يخفف من وطأة هذا الحكم عليه أن لا يقف عند الأخذ فقط ، بل يعطى بقدر ما يستطيع حتى تدوم صداقاته ولا تنتهى بسرعة ، ثم يتعذر عليه أن يعقد صداقات غيرها .

وكما عودنا أسلافنا العظام الذين لم يتركوا شيئا إلا وتناولوه بالبحث والدرس والتمحيص ، ثم كتبوا فأفاضوا ، وصنفوا فأجادوا ، وألفوا فأوفوا ،

فبلغ ما خلفوه لنا وللعالم الآلاف المؤلفة من الكتب والمراجع ، فقد وضعوا تصنيفات بعضها للصداقة والبعض الآخر للأصدقاء ، رأينا أن نذكرها لأهميتها من ناحية . . ولطرافتها من ناحية أخرى .

أنواع الأصدقاء :

قسم التوحيدى الأصدقاء إلى نوعين ، وذلك وفقا لما هم عليه من أخلاق ، وذلك على النحو الآتى :

١ـ **صداقة الأخيار** : وهى تورث الخير ، تنعقد بسرعة وتنتهى فى بطء ، وشبهها ، فقال : إنها مثل آنية الذهب بطيئة الانكسار ، وإذا انكسرت فهى هينة الإعادة ، أى الإصلاح . لذلك قال لقمان لابنه : جالس العلماء وزاحمهم بركبتك ، فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة ، كما يحيى الأرض الميتة بوابل السماء .

٢ ـ **صداقة الأشرار** : وهى تورث الشر ، كما أنها سريعة الانقطاع ، بعيدة الاتصال ، أى أنه يصعب إصلاحها لإعادتها كما كانت ، فهى مثل آنية الفخار التى يكسرها أدنى شىء ولا جبر لها . كما أن الصديق السيئ يحتاج فى معاملته دائما إلى الملاينة ، وهو أيضا من يضطر صديقه إلى الاعتذار له عن كل صغيرة وكبيرة لبعده عن التسامح .

وصحيح أن العتاب ضرورى بين الصديقين إذا وقع خلاف بينهما ، ولكن بدرجة معتدلة ، فالإسراف فيه يعد إلحاحا . أما صرف النظر عنه فيعد استهانة وتجاهلا للصديق [١] .

وفيما روى عن لقمان الحكيم أنه قال : من يصحب صاحب الصلاح يسلم ، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم .

(١) الصداقة والصديق ـ أبو حيان التوحيدى .

كذلك حذر بزرجمهر من صداقة الأشرار ، فقال : إياك وقرناء السوء ، فإنك إن عملت قالوا : راءيت (أريته على خلاف ما أنا عليه) ، وإن قصرت قالوا : أثمت ، وإن بكيت قالوا : شهرت (فضحت) ، وإن ضحكت قالوا : جهلت (تسافهت) ، وإن نطقت قالوا : تكلفت (تكلف الأمر ـ تجشمه وتحمله على مشقة وعسرة وعلى خلاف عادته) ، وإن سكتَّ قالوا : عييت (عدم القدرة على النطق) ، وإن تواضعت قالوا : افتقرت ، وإن أنفقت قالوا : أسرفت ، وإن اقتصدت قالوا : بخلت .

وقال أعرابى : صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار .

وقال آخر : إخوان الشر كشجرة النار يحرق بعضها بعضا .

أما ابن مسكويه ، فقد قسم الصداقة إلى ثلاثة أنواع ، وذلك بحسب الهدف منها . وتنقسم على النحو التالى :

١ ـ **صداقة اللذة** : وهى التى يكون الهدف منها الحصول على اللذة ، وهى تنعقد سريعا وتنحل سريعا ، لأنه فضلا عن أن اللذة لا تستغرق وقتا طويلا ، فإنها متغيرة . . فهناك لذة الجنس ، وهناك لذة المال . وهذا النوع أكثر انتشارا بين الفتيان . ونضيف نحن لذة تعاطى المخدرات على اختلافها .

٢ ـ **صداقة المنفعة** : والهدف منها تحقيق منفعة ما ، وهى تنعقد ببطء وتنحل بسرعة حالما تتحقق المنفعة ، وهى أكثر انتشارا بين كبار السن .

٣ ـ **صداقة الفضيلة** : وتنعقد سريعا وتنحل بطيئا ، لأن الخير باق بين الناس ، وهى صداقة الأخيار (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق) .

أما الماوردى ، فقد قسم الأصدقاء (الإخوان) إلى أربعة أقسام ، وذلك وفقا لما أسماه طلب العون أو تقديمه ، وذلك على النحو التالى :

١ ـ من يعين ويستعين .

٢ ـ من لا يعين ولا يستعين .

٣ ـ من يستعين ولا يعين .

٤ ـ من يعين ولا يستعين .

النوع الأول : وهو الذى يعين ويستعين ، فهو معاوض (أى محب للمعاوضة أو المبادلة) يؤدى ما عليه ويستوفى ماله ، فهو كالمقرض يسعف عند الحاجة ويسترد عند الاستغناء ، وهو مشكور فى معونته ، ومعذور فى استعانته . فهذا أعدل الأصدقاء أو الإخوان .

النوع الثانى : وهو الذى لا يعين ولا يستعين فهو متروك ، قد منع خيره وقمع شره ، فهو لا صديق يرجى ولا عدو يخشى، فلا هو مذموم لقمع شره، ولا هو مشكور لمنع خيره ، وإن كان باللوم أجدر .

النوع الثالث : من يستعين ولا يعين فهو لئيم كل ، ومهين مستذل ، قد قطع عنه الرغبة وبسط فيه الرهبة ، فلا خيره يرجى ولا شره يؤمن ، وليس له فى الإخاء حظ .

النوع الرابع : وهو الذى يعين ولا يستعين ، فهو كريم الطبع ، مشكور الصنع ، قد حاز فضيلتى الابتداء والاكتفاء ، فلا يرى ثقيلا فى نائبة ، ولا يقعد عن نهضة فى معونة، فهذا أشرف الإخوان وأكرمهم طبعا .

وعلى الرغم من أهمية هذه التصنيفات ، فإنها لا تغنى عن الشروط التى يجب أن تتوفر فيمن نحاول أن نتخذه صديقا ، والتى إذا لم تتوفر كلها أو بعضها صرفنا النظر عن صداقته لرجحان احتمال أن تفضى إلى أضرار نحن فى غنى عنها .

والفقهاء يختلفون فيما بينهم بشأن الشروط التى يجب أن تتوفر فى الشخص الذى نتخذه صديقا ، فمنهم من يتوسع فيها ، ومنهم من يضيق . وذلك على النحو التالى :

صفات الأصدقاء :

يرى الإمام الغزالى أنها خمسة شروط ، وهى : العقل ، وحسن الخلق ، والصلاح ، والكرم ، والصدق .

أما أبو نجيب ضياء الدين السهروردى ، فإنه يشترط فيمن نتخذه صديقا أن تتوفر فيه ثلاثة شروط ، وهى : أن يكون موافقا لنا فى الاعتقاد ، وفى الدين ، وأن يكون حسن الخلق . وهى كما نرى ثلاثة شروط لم يتفق مع الغزالى إلا فى واحد فقط ، هو حسن الخلق ، كما أنه لم يذكر الصدق كشرط لقيام الصداقة ، بينما هو أول ما يجب أن يتوفر فى الصديق ، لأن الصداقة ـ كما سبق أن بينا ـ اسمها مشتق من الصدق ، فيجب على الصديق أن يكون صادقا ، بل وأن يصادق الصادقين. قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ (١) . فهنا يأمر الله تعالى المؤمنين أن يتقوه وأن يكونوا مع الصادقين . فمن أهم صفات المسلم التزام الصدق فى قوله وفى فعله .

والصدق عند المسلم هو الحق ، والحق هو أساس الإيمان ، بل وأساس الوجود . أما الكذب فهو الباطل ، الذى يناقض الحق ويعارض الإيمان ويفسد الضمائر ويشوه الحياة . وعلى ذلك فإن المسلم لا يصح أن يتصف بالكذب ، ولا أن يرضى به أسلوبا يتعامل به مع الناس . قال رسول الله ﷺ : (يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب) (رواه أحمد) ،

(١) سورة التوبة / ١١٩ .

ويفول كذلك : (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كان فيه خصلة منها كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب . .)[١] .

كذلك قال عليه الصلاة والسلام : (عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، والبر يهدى إلى الجنة . وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا . . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار . وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) . ويقول أيضا : (تحروا الصدق وإن رأيتم أن الهلكة فيه ، فإن فيه الحياة)[٢] .

الكذب المسمى بالأبيض :

يوجد لدى الشباب اعتقاد بوجود نوعين من الكذب ، أولهما : الكذب العادى . وثانيهما : الكذب الأبيض . ويعنون به الكذب الذى لا يهدف قائله إلى الإضرار بأحد ، بل إلى المزاح والترويح عن النفس ، ومنه هذه العادة القبيحة لدى الغربيين التى يطلقون عليها كذبة إبريل نسبة إلى الشهر الرابع فى التقويم الغربى أو الجريجورى .

وكثيرا ما نرى الشباب حين يتجمعون يروون هذه الأكاذيب قاصدين الضحك ، كأن يقول أحدهم لآخر : إن اللصوص قد سطوا على بيتهم ، أو أن طالبا من زملائهم مات فى حادثة ، وذلك من أجل أن يذهب أحدهم أو بعضهم إلى بيت هذا الزميل للقيام بواجب العزاء ، أو بإبلاغ المسئولين فى المدرسة لاتخاذ ما يلزم نحو المشاركة فى تشييع الجنازة ، أو تقديم العزاء ،

(١) رواه البخارى

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا .

أو نشر نعى فى الصحف . وكل هذا كذب لا يختلف عن غيره بل قد يكون أبشع منه وأشنع ، لأنه يتسبب فى مصائب وكوارث . ولقد قال رسول الله ﷺ: (لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب فى المزاح) (١) . بل إن من يعد صبيا صغيرا بإعطائه شيئا إن هو جاء إليه ، يكون كاذبا إن لم يعطه ما وعده به . قال رسول الله ﷺ : (من قال لصبى تعال هاك ، ثم لم يعطه فهى كذبة) (٢) .

وليعلم الشباب أن أعظم الكذب ، وأشده عقابا ما انتهكت به الحرمات وضاعت به الحقوق ، كشهادة الزور التى تقلب ميزان العدل وتغير وجه الحق . وهو الذى وصفه رسول الله ﷺ بأكبر الكبائر ، فقال : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر عند الله ؟ ـ ثلاثا ـ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ـ وكان متكئا فجلس ـ وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور . فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت) (٣). ويقول تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا . أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ (٤).

وعليه ، فإن الصداقة مهما كانت قوية ومتينة يجب ألا تجعل الصديق يكذب من أجل صديقه ، ظنا منه أنها تملى عليه أن يقف إلى جانبه ظالما كان أو مظلوما . وهو ما يدعو إليه شعار : « صديقى أولا » ، أى قبل كل أحد

(١) رواه أحمد

(٢) المصدر السابق .

(٣) رواه البخارى .

(٤) سورة النساء / ١٣٥ .

مهما كان ما أصاب الناس منه . وهو الشعار الذى ظهر أولا بين عصابات المراهقين فى الولايات المتحدة وأخذته عنهم السينما الأمريكية فى أفلامها ، مما يسر له الانتشار ، وبالذات فى دول العالم الثالث التى يجعل تخلفها الشباب من أبنائها يشعرون بالدونية فيحاكون كل ما يشاهدونه أو يطرق أسماعهم، مما يحدث فى الغرب بعامة وفى الولايات المتحدة بخاصة، ظنا منهم أن فى هذا علاج لتخلف مجتمعاتهم ، بينما الحقيقة أنهم إنما يؤكدون تخلفهم هم أنفسهم وضعف أو انعدام ثقتهم فى أنفسهم وعجزهم عن أن يسهموا فى انتشال مجتمعاتهم من وهدة التخلف ، مع العلم بأن عصابات المراهقين فى أمريكا وغيرها لا يرتبط أعضاؤها برابطة الصداقة، ولكن ما بينهم لا يعدو أن يكون علاقة إجرامية ، وأن شعار : « صديقى أولا » الهدف منه التستر على المجرم .

الشرط الثانى من شروط الصداقة : أن يكون الصديق أمينا مع صديقه. فلا يخونه . قال رسول الله ﷺ : (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)[1]. والأمانة فى حقيقتها صفة نفسية تملى على صاحبها سلوكا لا يتبدل إزاء كل ما يعهد إليه القيام به ، وكل ما يلتزمه ويتحمل مسئوليته . وهى على هذا الوجه تشمل كل تبعات الحياة صغيرة أو كبيرة وتحيط بكل الأعباء التى تقع على عاتق الإنسان . قال رسول الله ﷺ : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم فى مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته)[2] .

الشرط الثالث : أن يكون الصديق متسامحا قال تعالى : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه**

(١) رواه أحمد

(٢) رواه البخارى .

عداوة كأنه ولى حميم ﴾ (1) . فمن تتخذه صديقا يجب أن تكون صلته بالناس ، وبخاصة أصدقائه ، متسمة بالسماحة ويظللها الحلم ويحيط بها العفو وضبط النفس . قال رسول الله ﷺ ـ لأصحابه : (ما تعدون الصرعة فيكم؟ (أى القوى الشجاع)، قالوا : الذى لا تصرعه الرجال ، قال : لا، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب) . ولئن كانت المشاعر الطبيعية للإنسان تدفعه إلى الانتقام وتغريه أن يقابل السوء بمثله ، فهذا حق أباحه الإسلام للنفس البشرية مقيدا بعدم التجاوز . قال تعالى : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ (2). ولكن الإسلام بعد أن قرر هذا الحق ، أهاب بالإنسان أن يسمو إلى منزلة أعظم من ذلك وأكرم . . منزلة ينالها الإنسان بإيمانه وتقواه. وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين** ﴾ (3) .

وقال رسول الله ﷺ : (إذا كان يوم القيامة ينادى مناد : ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة ، وهم العافون عن الناس) (4) .

وهكذا يكون التسامح والعفو سبيلا من سبل التربية التى تهدف إلى تنقية القلب من مشاعر الحقد والكراهية وتطهره من نزعات السوء ، وبذلك يرتفع يقين المسلم ويزيد إيمانه وكماله ، فتعلو منزلته عند الله ويعظم ثوابه. قال رسول الله ﷺ : (« ألا أنبئكم بما يشرف الله به البنيان ويرفع الدرجات » ؟ قالوا : نعم يا رسول الله . قال : « تحلم على من جهل

(1) سورة فصلت / ٣٤.

(2) سورة البقرة / ١٩٤ .

(3) سورة الشورى / ٤٠

(4) رواه الطبرانى بإسناد حسن

عليك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك»)[1] .

فالصديق إذا فعل ذلك ، فإنه يدل على إدراكه الصحيح لما يتطلبه أمن المجتمع وسلامه . فليس من شك فى أن التعصب وعدم التسامح وترك العفو هى من الشرور التى وإن بدت صغيرة هينة إلا أنها فى الحقيقة خطيرة وضارة غاية الضرر ، لأنها تثير الخصومات وتؤجج المنازعات فتضعف لا جماعة الأصحاب وحسب بل المجتمع ذاته . قال تعالى : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾[2] .

وقال جل شأنه : ﴿ **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾[3] .

وكما هو واضح ، فإن الشروط الثلاثة المتقدمة ، وهى : الصدق والأمانة والتسامح تعتبر شروطا أساسية وعامة تقترن بالشروط الأخرى الثانوية التى دعا الفقهاء والعلماء إلى وجوب توفرها فيمن نصادقه . ولنأخذ مثالا ما قاله العتابى لصاحب له : ما أحوجك إلى أخ كريم الأخوة ، كامل المروءة ، إذا غبت خلفك (كان خليفتك ، والمقصود نهض بما تنهض أنت به ، حتى لكأنك حاضر) ، وإذا حضرت كنفك (صانك وحفظك وحاطك وأعانك)، وإذا بكرت عرفك (أى إذا تقدمت جازاك ونولك معروفا) ، وإذا جفوت لاطفك ، وإذا برزت (سبقت) كافأك ، وإذا لقى صديقك استزاده لك (زاد من صداقته لك بحديثه الطيب عنك ، ووصفه الجميل لك) ، وإن لقى عدوك منع عنك ظلمه وشره بما يملك من وسائل) ، وإذا

(١) رواه الطبرانى .
(٢) سورة الأنفال / ٤٦ .
(٣) سورة النور / ٢٢ .

رأيته ابتهجت ، وإذا باثثته (كاشفته فى سر من أسرارك) استرحت . وهذا كله يحتاج إلى أن يكون فاعله صادقا وأمينا ، وإلا فهو لغو لا يعتمد عليه ولا يوثق به .

كذلك ما قاله على بن عيسى الوزير ردا على العوامى الذى سأله قائلا : إن الحال بينك وبين أبى مجاهد صفيقة (قوية متينة) ، فما الذى قربه منك؟ ونفقه عليك ؟ وأولعك به (حببه إليك) ؟ فقال : وجدته متواضعا فى علمه، هشا فى نسكه (زهده وتعبده) ، كتوما لسره ، حافظا لمروءته ، شفيقا على خليطه (رحيما بالذين يخالطهم ويعاشرونه) ، حسن الحديث فى حينه، محمود الصمت فى وقته ، بعيد القرين فى عصره (قل أن تجد له نظيرا فى زمانه) . والله لو لم يكن فيه من هذه الأخلاق إلا واحدة لكان محبوبا ومقبولا. فهل كان على بن عيسى يثق فى صديقه أبو مجاهد لو أنه لم يتأكد من صدقه وأمانته ؟ . . طبعا لا .

وهنا يبرز شرط آخر من الشروط التى يجب أن تتوفر فى الصديق ، هذا الشرط هو أن يكون موضع ثقة صديقه ، وأيضا أن يكون صديقه موضع ثقته، لأن ثقة الصديق فى صديقه عامل مهم جدا فى قوة الصداقة وعمقها واستمرارها رغم ما قد يعترضها من صعوبات . مثال ذلك ما ذكره أبو حيان التوحيدى (الصداقة والصديق ص٢) من أنه قال لصديق له يدعى أبا سليمان محمد بن طاهر السجستانى : إنى أرى بينك وبين ابن سيار القاضى ممازحة نفسية ، وصداقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومؤاتاة (موافقة) خلقية ، فمن أين هذا ؟ وكيف هو ؟ فقال : يا بنى ، اختلطت ثقتى به بثقته بى ، فاستفدنا طمأنينة وسكونا لا يرثان (لا يبليان) على الدهر ، ولا يحولان (لا يزالان) بالقهر .

ولكن أن تثق فى شخص هكذا دون بحث أو تمحيص فهو الخطأ بعينه ، وإنما يجب التروى حتى تقوم بما يوصيك به الأعرابى الذى قال : من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأنس ، أثمرت مودته ندما : ليكن الأنس آعلى وأغلى مودتك ، وأبطأها عرضا على صديقك . وهو يقصد بها قاله أن تمتحن صديقك قبل أن تضع ثقتك فيه ، والتى يجب بدورها أن تسبق ائتناسك به ، لأن الأنس إذا قام بين شخصين فإنه يعجل بالثقة . وهذا تسرع غير محمود، لأنك فى امتحانك لصديقك يجب أن تأخذ الوقت الكافى ، وأن تكون بمنأى عن أى مؤثرات . وهو يوصيك بأن يكون الأنس أعلى وأغلى صور المودة التى تقدمها للصديق ، وأيضا أبطأها .

كذلك هو يبين كيف يتمكن إخوان السوء من جعلك تأتنس بهم . ومن ثم يحصلون على ثقتك ، فيقول : إخوان السوء يتفرقون عند النكبة ، ويقبلون مع النعمة ، ومن شأنهم التوصل بالإخلاص والمحبة إلى أن يظفروا بالأنس والثقة، ثم يوكلون الأعين بالأفعال ، والأسماع بالأقوال ، فإن رأوا خيرا ستروه، وإن رأوا شرا أو ظنوه أذاعوه ونشروه .

بعد أن بينا أهمية الصداقة وضرورتها للإنسان وما يعود عليه من نفع منها، قد يتساءل البعض عما إذا كان التوسع فى اتخاذ الأصدقاء يعنى زيادة الفوائد التى تعود عليهم من الصداقة ، أم أن الأفضل الاقتصار على عدد قليل من الأصدقاء ؟ وما هو العدد الأمثل لهم ؟

العدد الأمثل للأصدقاء :

بمعنى، هل الأفضل أن يكون للشخص عدد كبير من الأصدقاء ، أم أن العكس هو الأفضل ، أى أن يكون عددهم قليلا ما استطاع ؟

هناك ما يمكن أن نسميه إجماعا على أن الأفضل أن يكون عدد الأصدقاء



● ولنكتف بواحد ، إن وجد ، فإن الكمال عزيز .

قليلا ، ولعل ذلك يرجع إلى ما نسب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أنه قال : الإخوان بمنزلة النار، قليلها متاع، وكثيرها بوار أى هلاك وفساد. فتأثر بـه المفكرون والفقهاء ليس لأنه صادر عن عمر فقط ، وإنما لصحة المبرر إلى الذى ساقه . ومن هؤلاء الفقهاء ابن مسكويه الذى قال فيه : (ولنكتف بواحد ، إن وجد ، فإن الكمال عزيز . وأيضا إن من كثر أصدقاؤه لم يف بحقوقهم ، واضطر إلى الإغضاء عن بعض ما يجب عليه والتقصير فى بعضه ، ربما تراوحت عليه أحوال مضادة ، أعنى أن تدعوه مساندة صديق إلى أن يسر بسروره ومساندة آخر إلى أن يغتم بغمه ، وأن يسعى بسعى واحد ويقعد بقعود آخر، مع أحوال تشبه هذه كثيرة مختلفة) . هكذا أضاف ابن مسكويه أسبابا أخرى إلى ما ذكره الخليفة عمر بن الخطاب .

كذلك المفكر أبو الحسن الماوردى ، فإنه يرى أن الأفضل هو قلة عدد الأصدقاء ، ويبرر ذلك بقوله : (إذا كان التجانس والتشاكل من قواعد الأخوة وأسباب المودة ، كان وفور العقل وظهور الفضل يقتضى من حال صاحبه قلة إخوانه ، لأنه يروم مثله ويطلب شكله وأمثاله من ذوى العقل والفضل ، ولأن الخيار فى كل جنس هو الأقل ، فلذلك قل وفور العقل والفضل (أدب الدنيا والدين) .

وقال بعض السلف : إياك وكثرة الإخوان ، فإنه لا يؤذيك إلا من تعرف، وأنشد :

جزى الله عنا الخير من ليس بيننا ... ولا بينه ود به نتعرف

فما سامنا ضيما ، ولا شفنا أذى ... من الناس إلا من نود ونألف

وليس من شك فى صواب هذا الرأى ، فكثرة الأصدقاء تمثل عبئا كبيرا على الشخص ، خاصة مع ما رأيناه من كثرة الواجبات الملقاة على عاتق

الصديق مما يكون من شأنه أن يجعله يقصر فى القيام بها فيغضب أصدقاءه ، وقد يصرفهم عنه ظنا منهم أنه يتعمد ذلك . وإذا كان أسلافنا ، رضوان الله عليهم ، قد رأوا عدم صواب الإكثار من الأصدقاء ، وقد كانت الحياة على أيامهم غيرها الآن، فما بالنا نحن إذا كثر أصدقاؤنا ؟! وماذا نفعل إزاء الواجبات الكثيرة التى تفرضها علينا الصداقة لصالحهم ؟! لا شك أننا سنقصر فى أدائها شئنا أم أبينا ، وبالتالى نخسرهم كأصدقاء وربما يتعذر علينا اتخاذ غيرهم لما سنشتهر به من تقصير فى حق الصداقة وتعمد الإساءة إلى الأصدقاء ، على الرغم مما هو معلوم من أن الصداقة تستحوذ على وقت واهتمام وجهد ومال الصديق الذى هو فى الحقيقة ليس متفرغا لها ، وإنما لديه أمور أخرى ومسئوليات يجب عليه الاضطلاع بها ، فهناك الدراسة أو العمل ، وهناك الأسرة والعائلة فضلا عن اهتماماته الخاصة ، مثل : القراءة والرياضة وغيرها . وهو ما يجب أن يأخذه الأصدقاء بعين الاعتبار إذا حدث نوع من التقصير من صديقهم ، فلا يسيئون الظن به بل يلتمسون له العذر.

الرأى فيمن يصادق عدو صديقه :

كذلك قد يثور التساؤل حول ما إذا كان للصديق أن يطالب صديقه بعدم التعامل مع شخص بينه وبينه عداء وإلا فصم عرى الصداقة التى بينهما ؟! خاصة وأننا نلاحظ شيوع ذلك بين الشباب حيث نرى الواحد منهم إذا وقع خلاف بينه وبين آخر يدعو أصدقاءه ليخيرهم ، وبشكل حاسم ، بين أن يكونوا معه وفى صفه أو أن يكونوا مع خصمه وفى صفه . وهى مشكلة قديمة تعرض لها الفقهاء والمفكرون ، منهم أبو داود الذى

قال : صديق عدوك حربك أى عدوك ، فهو يرى أن للصديق الحق فى أن يطلب من صديقه أن يمتنع عن التعامل مع عدوه ، وإلا فإنه يكون هو الآخر عدوه ويسرى عليه ما يسرى على هذا العدو !

وهو رأى غريب، وبخاصة من فقيه كبير مثل أبى داود الذى كان من الواجب عليه أن يتمهل قبل أن يصدر مثل هذا الحكم الذى لو أننا أخذنا به لأصبح الناس فريقين لا ثالث لهما : أصدقاء وأعداء ، وهذا غير معقول . ومثله ما رواه ابن المرزبان الكاتب عن أحد الخلفاء العباسيين ، قال : سمعت الخليفة المطيع يقول : صديقك صديقك ، وصديق صديقك صديقك ، وعدوك عدوك ، وصديق عدوك عدوك ، وعدو صديقك عدوك ، وعدو عدوك صديقك .

وإذا كنا قد اعتبرنا ما قاله أبو داود غريبا ، فإن هذا الذى قاله الخليفة العباسى المطيع لا يعتبر كذلك ، لماذا ؟! لأنه صادر عن خليفة ، أى حاكم كبير ، كما أنه يحكم الناس . فإن الخوف على ملكه يحكمه ، وبالتالى فليس لديه وسط ، فإما صديق خالص له أو عدو ، وإذا صادق صديقه عدوه أصبح عدوا له وعامله كما يعامل عدوه . وهذا أمر عادى بالنسبة للحكام الذين يقضون حياتهم خائفين على كراسيهم يشكّون فى كل من يتعاملون معهم ، لا يثقون فى أحد ولا يطمئنون إلى أحد وأعدائهم كثيرون، وغالبيتهم العظمى ـ من وجهة نظرهم ـ ممن يطمعون فى عروشهم . وبالتالى، فإن الأمر لا يحتمل المجازفة فمن يصادق عدوهم يجب أن يدرج فى قائمة الأعداء ويعامل مثلما يعاملون !

ويقول أبو سليمان عن صداقات الملوك : فأما الملوك فقد جلوا عن الصداقة (أى عظمت أقدارهم عنها) . ولذلك لا تصح لهم أحكامها ولا

توفى بعهودها ، وإنما هى جارية على القدرة والقهر والهوى ، وما هو محبب إلى النفس، وما هو غريب، والاستخفاف أو الاستهانة بالناس وبالأشياء. وباختصار : فإنهم لا يؤمنون بالصداقة ولا يثقون فى الأصدقاء ، لأنهم لا يثقون فى أحد .

وإذا كان أبو داود قد أخطأ فى حكمه ، وكذلك الخليفة العباسى المطيع . فما هو الصواب ؟

الصواب هو ما قاله الفقيه أبو حامد المرورودى فى رده على ما قاله أبو داود الذى جاء فيه ما يلى :

« هذا هو الإسراف والتجاوز والعداء الذى يخالف الدين والعقل ، لعل صديقك إذا رأيته مع عدوك يثنيه إليك (يعطفه) ويعطفه عليك ويبعثه على تدارك فائتة منك . ولو لم يكن هذا كله لكان التأنى مقدما على العجل ، وحسن الظن أولى به من سوء الظن . ثم قال : ذهب الإنصاف فى العداوة والصداقة وأصبح الناس أبناء واحد (يقصد أنهم كلهم على سجية واحدة كأنهم ورثوها عن وأب واحد ، فهم جميعا متصفون بهذه الصفات) فى الرغبة والرهبة والجهل والجبرية (التكبر) والعمل على سابق الهوى وداعية النفس (ما تدعو إليه النفس من الغى والضلال) ، وهذا لأن الدين مرخى الرسن (المقصود أن الدين أصبح مهملا لا يستمسك أحد بحباله ولا يهتم أحد باتباع ما يأمر به) مخدوش الوجه مفقوء العين مزعزع الركن ، والمروءة ممزقة الجلباب مهجورة الباب ، ليس إليها داع ، ولا لها مجيب ، والله المستعان» .

وهذا الذى قاله المرورودى صحيح ، فليس بشرط أن تكون صداقة صديقك لعدوك الدافع إليها الكيد لك والإساءة إليك أو على الأقل التخلى

عن صداقته لك ، وإنما قد يكون فى ذلك مدفوعا بالرغبة فى إزالة ما بينك وبين هذا العدو من عداء ، ربما يكون قد نشأ عن سعى آخرين بالوقيعة بينكما أو لتسرعك فى الحكم على تصرف صدر منه نحوك أو لخطأ ارتكبته أنت فى حقه، ولكنك تكابر وتصر على أنه المخطئ . وعموما ، فإن العداوة غالبا ما تكون لأسباب شخصية لا شأن للأصدقاء بها ، وبالتالى لا يصح إقحامهم فيها وإلا فقدناهم .

كذلك ، فإن معنى أن نقول : صديق عدوى عدوى ، أننا نعتبر الناس بلا إرادة أو رأى ، وإنما الإرادة إرادتنا والرأى رأينا ، فمن يرتبط معنا بصداقة عليه أن يصادق من نصادق ويعادى من نعادى كأنه إمعة لا رأى له ولا وزن، وهو ما يقتضى منا أن نسأل أنفسنا : هل نقبل هذا لأنفسنا أم نرفضه؟ وأعتقد أن الإجابة هى نرفضه . هذا إذا كنا ممن يعاملون الناس بمثل ما نحب أن يعاملونا به .



خاتمة

بعد أن عرضنا أغلب ما نعتقد أنه يتعلق بالصداقة مما يجب على الشباب أن يلم به ، نقول : إن الموضوع ليس صغيرا ، بمعنى أن كتيبا أو كتابا أو كتابين أو حتى عشرة كتب تكفى للإحاطة به وإيفائه حقه من الاهتمام ، ولكنه يحتاج إلى عشرات الكتب والكتيبات . وإنما قدمنا لك أيها الشاب القارئ العزيز هذا الكتيب تقديرا منا لظروفك التى لا تترك لك متسعا من الوقت للقراءة أو لأنك وإن ملكت الوقت فإنك سريع الملل لا تميل إلى قراءة الكتب بصفحاتها الكثيرة ، وتقديرا منا أيضا لظروفك المالية التى قد يرهقها ثمن الكتاب .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن ما ورد بهذا الكتيب من أمور خاصة بالصداقة ، بالذات ما يتعلق بخصائصها وبالشروط التى يجب أن تتوفر فيمن نتخذه صديقا ، وما يجب على الصديق نحو صديقه قد يبدو لك مما يتعذر تحققه ، وبالتالى فإنك إما أن تنظر فى ضوئه إلى ما بينك وبين الآخرين من صداقة على أنه ليس صداقة أو أن تتردد فى اتخاذ أصدقاء ، إذا لم تكن قد اتخذت منهم أحدا بعد . لذلك رأيت أن أنبهك إلى أن وضع شروط للصداقة من أجل أن يلتزم بها الشباب عند اختيارهم للأصدقاء ، أو بمعنى أصح لكى يراعونها فى هذا الاختيار هو عمل أقرب للمثالية منه إلى الواقعية ، وذلك لأن الإنسان عندما يشعر بالميل نحو إنسان آخر ويرغب فى الارتباط به برابطة الصداقة ، فإنه إنما يكون مدفوعا إلى ذلك بدوافع مختلفة

الدار المصرية اللبنانية

٢٠٫٠٠ ج